أزمة الفكر العربي

تأليف

الدكتور إسحاق موسى الحسيني

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٤

فهرس الكتاب

مقدّمة

ليس القصد من هذا الكتاب ان يثبت وجود ازمة في الفكر العربي لا اصل لها ، او ان يحدث ازمة فكرية جديدة ، فالذين يجولون بأبصارهم في المجتمع العربي ويتحسّسون ما يجري فيه ، يرون مظاهر هذه الازمه واضحة غاية الوضوح . وليس في ذلك مدعاة لليأس والتشاؤم . فالازمات الفكرية ظواهر طبيعية في حياة الامم قاطبة . وما من امة حية الا تعاني ازمة او ازمات كلما حاولت الانتقال من مرحلة الى اخرى .

والمجتمع العربي – شأنه كشأن سائر المجتمعات – يمر الآن في دور انتقال من حياة قديمة الى حياة حديثة تحاول ان تنسجم مع حيوات سائر الامم القريبة والبعيدة. وقد توالت الاحداث سراعاً بعد الحرب العالمية الأولى، واثرت في جميع مرافق الحياة. ونذكر بوجه خاص تحرر البلاد العربية ، او بعضها على الاصح،

فدعا ذلك ان يتولى العرب شؤون بلادهم ويواجهوا مشاكل كثيرة كان يواجهها في الماضي غيرهم من الحكام والموظفين .

واشتد كذلك الاقبال على التعلم اشتداداً ما برح في ازدياد يوماً بعد يوم، فتفتحت عقول كانت مغلقة في الماضي، واخذت تتأمل في حياتها وحياة غيرها ، وتوازن بينهما ، وتحسّ بالفوارق البارزة احساساً قوياً، وتحاول ان ترد هذه الفوارق الى اسبابها الطبيعية.

وانتقل العلم الى البيوت، في المدن والقرى، بوساطة الاذاعة والصحف، وشرع يوقظ الناس من غفلتهم التي طال عليها الامد، ويضع امامهم معارف متنوعة ميسرة ، بأسلوب واضح بيّن ، فتكوّن وعي شعبي كان معدوماً او كالمعدوم في القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين .

وجدّت مذاهب وآراء بعد الحربين العالميتين تناولت جميع مظاهر الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وعقلية وروحية. فاصطدمت هذه الآراء بالآراء القديمة وتولدت شرارات انارت ظلمات كان بعضها فوق بعض . ولم يكن باستطاعة الناس ان يقفوا من هذا الصراع دون مبالاة . فقد اثرت هذه الآراء والمذاهب في حياتهم تأثيراً مادياً. وقد تبين لهم ان الامم تتسابق نحو حياة اكرم وارغد ، بوضع الانظمة السياسية المحققة للعدالة التامة بين الافراد وللتضامن الاجتماعي وحرية الفكر

والعمل ؛ وباختراع وسائل الرفه والامتاع وتوطئة سبل العيش، وتصريف الطاقة البشرية على افضل الوجوه بالاستعانة بالآلات التي دخلت جميع المرافق ؛ وبتوجيه الجهود العلمية الى درس المادة واكتشاف طبائعها واستغلالها لخدمة المجتمع الانساني . وانتفع العرب بثمار هذه الجهود دون ان يكون لهم فيها مشاركة. ثم ادركوا ان هذا الانتفاع لا يكون انتفاعاً حقيقياً الا اذا كان لهم سهم في توليده ، والا اذا انتظموا في المجتمع المتحضر ينشئون كما ينشىء ، ويجهدون كما يجهد ، ويبدعون كما يبدع .

وزاد الاحتكاك بينهم وبين العالم المتحضر . ورأوا هذا العالم يعدو نحوهم ومعه معداته وآراؤه وعلومه ، وهم ما زالوا وقوفاً في اماكنهم . يذهب منهم افراد الى ذلك العالم ويعودون وهم مذهولون، للتطور السريع الذي اصاب مرافق الحياة، وللتسابق في تحقيق حياة انعم واكرم . فتبين لهم بالمشاهدة والسماع ان تلك النعم حقائق لا مرية فيها ، وانه ينبغي ان يكون لها اسباب وعوامل هي التي ادت اليها .

وقام صراع بين المنقول والمعقول ؛ بين ما استوعب الناس من تراثهم الفكري والروحي – استيعاباً يختلف قوة وضعفاً باختلاف الافراد والبيئات – وبين هذا التراث الجديد القائم على المعقول والتفكير العلمي والاختبار المؤيد بالتحليل والتجربة .

ورأوا ان منقولهم يحتــاج الى تقويم جديد والى غربلة وحذف واصلاح، وانه لا بد من تلقيح يعيد اليهم ما فقدوه من اجتهاد وابداع .

هذه الامور كلها اثارت مشاكل امام المجتمع . وظهور المشاكل يستدعي الحل . واستدعاء الحل يولد « ازمة » ما تلبث ان تنحلّ على وجه من الوجوه. فان عالجها المفكرون الصابرون بأناة وتجرد وجرأة انفرج الحل عن خير عميم .

وليس في الحياة حل ابدي ، لان الحل ينصب على نوع من المشاكل ويوضع لها. والحياة النامية المتطورة تولد المشاكل، الواحدة تلو الاخرى ، الى غير نهاية . والعقول المدبرة المفكرة تبدع حلاً بعد الآخر الى غير نهاية ايضاً . وهكذا يرافق الحل المشكلة ويسير الاثنـان في خطين متوازيين . وهذا هو تاريخ الحضارة البشرية منذ بدايتها الى اليوم .

* * *

ونخلص مما تقدم ان ازمة الفكر العربي ازمة طبيعية لا تدعو الى اليأس ، ولكن تدعو الى الجرأة والاقدام واصالة الفكر ؛ وانها ليست قاصرة على العرب وحدهم ، وانمـا هي عـامة تشمل المجتمعات الانسانية كلها ، وان كانت تختلف باختلاف العوامل والظروف المحيطة بها .

وليس ما ابدي في هذا الكتاب من آراء ــ واهية او قوية، متطرفة او معتدلة ــ الا تعبيراً عن فكر واحد . وحسب هذا الفكر ان يضع امـام أولي الرأي والبصيرة طائفة من المشاكل ادت الى الازمة التي نلمس آثارها في مجتمعنـــا الحاضر . واذا اتفقت هذه الآراء مع آراء القراء بقي التنفيـذ ، وان اختلفت فليدل كل برأيه لنصل الى ما فيه السداد والخير العام .

ومن الخطأ ان يزعم شخص واحد انه يملك عصا سحرية ، وان بمقدوره ان يبدع حلًا لكل مشكلة ، ولو في بيئته الصغيرة المحدودة . ولكن من الخطأ ايضاً ان ينهزم المرء من المجتمع ، وان يتخلف عن الادلاء برأيه بصراحة في اية مشكلة تعرض له. وهذا ما يدعو الى الاعتراف بأن هذه الآراء المنثورة هنا وهناك آراء متواضعة قصد بها اثارة الفكر ومخضه ، رجاء ان يتولد في النتيجة رأي صائب يخرج العرب من ازمتهم الحاضرة .

اما الناعمون الهانئون الذين يعتقدون ان لا ازمة في الفكر العربي ، ولا مشاكل معقدة في المجتمع العربي ، فلينعموا الى حين ، والله ولي المتفكرين العاملين .

بيروت　　　　**اسحق موسى الحسيني**

الفصل الاول

ازمة الفكر العربي

١ – الوجود العربي :

ليسمح لي القاريء الكريم قبل الدخول في صلب الموضوع ان اتناول مسألة تتصل بالوجود العربي جملة، فما فائدة التحدث عن ازمة الفكر العربي والوجود العربي نفسه لا اساس له ، أو مشكوك فيه ؟

وربما يعجب لهذا الادعاء الغريب : « ادعاء ان الوجود العربي نفسه لا اساس له او مشكوك فيه » ، ولكن هذا الادعاء قد قيل ، والذين قالوه وجدوا مبرراً لقوله . ومن الواجب اعارته اهتماماً خاصاً لمكانة قائليه وخطورة نتائجه .

كتب احد المؤرخين الغربيين كتاباً عن العرب صدره بفصل في تعريف العربي . ومنذ ذلك الحين اخذت ترد اسئلة من هنا

وهناك : مَن العربي ؟ . ويتضمن هذا السؤال - كما لا يخفى - شكاً في صحة هذه التسمية ، وفي صحة الوجود العربي جملة .

واعتمد المؤرخ الغربي نقطتين رئيستين : الاولى انه لا يوجد جواز سفر ينص على ان حامله صاحب جنسية عربية . فالجوازات المستعملة في هذه المنطقة تذكر الجنسية السورية واللبنانية والاردنية والمصرية والعراقية والسعودية العربية وغيرها ، ولكنها لا تذكر الجنسية العربية . وعلى ذلك « فالعرب قد يكونون امة ، ولكنهم ليسوا جنسية بعد بالمعنى القانوني » . وهناك دول عربية ، وجامعة للدول العربية، « ولكن لا توجد اية دولة عربية بعد ينتسب اليها ويحمل جنسيتها العرب كلهم اجمعون »[1] .

والنقطة الثانية : اذا كان العربي هو من يتكلم العربية فما حكم اليهودي الذي يتكلم العربية ويقطن العراق او اليمن ؟ وما حكم المسيحي الذي يتكلم العربية ويسكن مصر او لبنان ؟ اهما عربيان ؟ ولم يورد المؤرخ[2] اجوبة حاسمة عن هذه الاسئلة، بل اورد ما ينم عن شكه في سلامة عروبتهما ، ودعم بذلك النقطة الاولى، وحقق غرضه الذي اسره اسراراً ، وهو اثارة الشك في الوجود العربي جملة .

وذهب باحثون آخرون الى الشك في صحة القومية العربية

جملة ، زاعمين ان هذا الذي يدعى بالقومية العربية، ما هو في الحقيقة سوى ظاهرة سياسية تتركز حول كره الاجانب . فهي في اصطلاحهم Xenophobia ليس اكثر . « والامة بالمعنى الحديث توجد في بقعتين فقط ، هما تركيا واسرائيل »[٣] !

وهناك آراء قال بها نفر من العرب انفسهم لتوهين الوجود العربي ضربنا عنها صفحاً لان غيرنا شرحها وفندها . وذكرها يكون من القول المعاد[٤] .

فهذه اذن ثلاث طعنات في صميم الكيـــان العربي شديدة الخطورة. وينقسم العرب الاحياء في النظر اليها الى ثلاثة فرقاء . فريق يرى الوجود العربي قوياً غاية القوة ، وليس بالامكان ابدع مما كان. ويقابله في الطرف الآخر فريق يرى هذا الوجود منهاراً لا سبيل الى اقامته وتثبيته، ولا سيما بعد نكبة فلسطين. ويتوسطهما فريق ثالث يرى اسس الوجود العربي سليمة، وعناصر الاثبات اكثر من عناصر النفي ، وعوامل التوحيد اقوى من عوامل التفريق، ولكن هناك ازمة حادة في الفكر العربي تلقي على الوجود العربي ظلالاً كثيفة ، وتوهم بعض الباحثين ـــ ولا سيا البعيدين عن الجو العربي ـــ ان الوهن يتنـاول الاصول ، ويورث الامة العربية صدعاً لا رأب له . ونحن من هذا الفريق الثالث .

اما الطعنة الاولى فنردهـا بأن الجوازات صنعت بعد ان خططت الحدود . والله يعلم ، والناس يعلمون ، ان الحدود ليست من تخطيط العرب. والشعوب العربية تلح على حكوماتها ان تزيل هذه الحدود، او على الاقل ، ان تعدلها وفق مصلحتها الحقيقية . يضاف الى ذلك ان نظام الجوازات مستحدث . وما كان في يوم من الايام ركناً في بنـــاء الامم . وقد شاهدنا في التـاريخ الحديث حدوداً تزال وجوازات تلغى بفعل الحركات القومية . وتعدد الجوازات في العـالم العربي ، اليوم ، احدث مشاكل متعددة ، ولكنه لم يوهن الشعور العربي ، ولم يحرف الاتجاه عن التكتل القومي .

اما الطعنة الثانية فنردها بأن عدم دخول اليهود في العروبة، مع تكلمهم العربية، امر يتعلق بالعقلية اليهودية والمزاج اليهودي. فاليهود - في كل مكان لا في بلاد العرب وحدهـــا - يصعب انصهارهم في البيئة التي يعيشون فيها . ودينهم وتاريخهم يحتمان عليهم ان يعتبروا انفسهم شعب الله المختار . وطبيعة الحيـاة التي يحيونهـا تحتم عليهم ان يكونوا دون الشعوب المتميزة باخلاقهـا ومثلها العليا .

اما المسيحي اللبناني الذي يتكلم العربية ، فلا نعرف انه تبرأ من العرب . والحال عكس ذلك ، فالتاريخ يشهد ان

القبائل المسيحية العربية استوطنت شطراً من هذه البلاد قبل الفتح الاسلامي ، وهي لذلك اعرق في العروبة من كثير من الاسر الاسلامية التي انحدرت من اصول غير عربية . يضاف الى ذلك ان القومية العربية لم تفرق بين المسلم والمسيحي ، لا في القديم ولا في الحديث . وسهمُ المسيحيين العرب، في القومية العربية ، والنهضة العربية الحديثتين، ظاهر ظهوراً يراه ابعد الناس. والاسلام من حيث هو دين اعتبر النصارى اقرب مودة الى المسلمين من سائر اصحاب الاديان. فقد جاء في آخر سورة من سور القرآن: «لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا، اليهود والذين اشركوا. ولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا ، الذين قالوا انا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون »[٥] .

اما في الحديث فنجد قولاً لمسيحي لبناني عريق في مسيحيته يدحض ما يزعمون: فهذا امين نخلة يقول: « لا حرج في التمسك بالقومية والكلف باللغة ، كما لا حرج في الدين . تتلاقى ملتا العرب: ملة القرآن، وملة الانجيل ، حتى كأن الاسلام اسلامان، واحد بالديانة، وواحد بالقومية واللغة. او كأنما العرب مسلمون جميعاً حين يكون الاسلام هكذا: هدى بمحمد وتمسكاً بقوميته وكلفاً بلغته . وان لغير المسلم في ارض العرب ان لا يدين بدين (ابن عبدالله) وان يخلب لبه مثلًا كتاب (لابن مريم) كل

حرف منه يقطر رفقا ، وصليب قعدت به دنيا وقامت دنيا . واما ان يكون فينا عربي ، من لحمنا ودمنا ، ثم يغدو لا يمت الى محمد بعصبية، ولا الى لغة محمد وقومية محمد، فهو ضيف ثقيل علينا ، غريب الوجه بيننا . ويا محمد ! يميناً بديني ، دين (ابن مريم) وبخشبات صليبه ، اننا في هذا الحي من العرب ، نتطلع اليك من شبابيك البيعة . فعقولنا في « الانجيل » وعيوننا في « القرآن »[٦] » .

هذا القول يعبر عن احساس المسيحيين في الاقطار العربية . ولطالما ردد العرب « الدين لله والوطن للجميع » . وان وجد بين المسيحيين افراد تنكروا للقومية العربية ، فقد وجد في الغرب افراد تنكروا لقوميتهم وآثروا عليها غيرها. والعبرة في الحكم، الجماعة لا الافراد.

اما الطعنة الثالثة فنردها بأن كره الاجنبي كان نتيجة حتمية للاستعمار الذي اناخ بكلكله على البلاد العربية . وكلما خفت وطأته تضاءل هذا الكره. وليست القومية العربية مبنية بطبعها على كره الاجنبي . واستعمال لفظة الأجنبي بهذا الاطلاق خطأ. فهناك اجانب لا يضمر العرب لهم كرهاً وحتى الاجانب المستعمرين يميز العرب بين شعوبهم وبين سياسة حكوماتهم . يضاف الى ذلك ان العرب لا ينفردون بهذه الظاهرة ، فقد كره

الالمان بعد الحرب الكبرى الاولى ، الاجانب ، حتى شمل كرههم كل اجنبي ، سواء أكان من الحلفاء ام من غير الحلفاء . والنفسية المجبولة على كره كل من ليس منها ، وتجد في تقاليدها ، وتاريخها ، ما يبرر الحقد والكره والتعالي على البشر ، موجودة على مقربة منا . وكان اولى بهؤلاء الباحثين ان يشيروا اليها ويطهروها .

واما ان اسرائيل امة بالمعنى الحديث ، دون امة العرب ، فأقل ما يقال فيه انه حكم سابق لاوانه . ولا ننكر ان اليهود يحاولون تكوين امة حديثة ، ولكن الصعاب التي يواجهونها كثيرة . ومن نكد الدنيا ان تقوم امة حديثة على التميز العنصري والنظام الديني الثيوقراطي والعداء التقليدي للبشر قاطبة وان لا يفسح المجال لقيام امة ذات تقاليد وحضارة ومثل عليا كريمة .

ونخلص مما تقدم ان الوجود العربي يقوم على اسس سليمة . وهو استمرار لوجود سابق راسخ في اعماق التاريخ ، وفي بطن التربة . والابحاث النظرية والتعريفات المعجمية تكشف الضعف في كل امة وفي كل قومية . وهل يستطيع باحث ان يعرف الانكليزي او الامريكي او الكندي او اليهودي نفسه او اي انسان دون ان يتعثر بشبهات مماثلة للشبهات التي تعثر بها معرفو العرب وباحثو قوميتهم ؟

ان اكثرية سكان هذه المنطقة ، من عرب ومستعربين ، ترجع الى اصول جنسية ـ او على الاقل لغوية ـ واحدة او متشابهة . وقد مضى عليها ما يزيد على اربعة عشر قرناً ، وهي تتفاعل بالتربة والمناخ واحداث التاريخ . وقد توحد لسانها وآمنت قلوبها وتقاربت عقولها وتشابكت حدودها، واختلطت مياهها ، وفوق هذا ، صحت منها العزائم على ان تتابع سيرها امة منتجة سمحة انسانية النزعات ، لا تستعبِد ولا تستعبَد .

والذي ضلل الباحثين انهم رأوا مظاهر ازمة عامة حادة فتوهموا ان الوجود نفسه مفقود او مزعزع البنيان .

٢ ـ فما طبيعة هذه الازمة وما مظاهرها وما علاجها ؟

ان الازمة في اساسها وجوهرها ازمة فكرية . وسائر الازمات التي تذر قرنها من حين لآخر ناجمة عنها .

ولهذه الازمة خمسة مظاهر :

الاول : الحيرة . فنحن حائرون لا ندري اين نتجه . ومثلنا كمثل من يخرج من بيته صباحاً دون ان تكون في رأسه فكرة واضحة عما يريد ان يفعل . يرى امامه مسالك كثيرة فيندفع نحو واحد منها وهو لا يدري اين يوصله . وقد يقضي حاجة او لا يقضي ، وقد يطول وقته او يقصر ، وقد يجد ما

يصبو اليه او لا يجد . وبتعبير آخر : نحن نسكن مدناً لا اسماء لشوارعها ولا ارقام لبيوتها. ولو كنا اصحاب فكر واضحة لخططنا مدننا حتى نعين قبل ان نخرج من بيوتنا الى اي شارع نحن ذاهبون والى اي مسكن نحن قاصدون. وربما كان الايمان بالقدر الذي تغلغل بين السواد ، وبأن شؤون الدنيا قد رسمت من عل جملة وتفصيلاً ، وان جميع الحركات والسكنات قد دونت قبل ان نوجد - ربما كان هذا الاعتقاد هو الذي ادى الى الاتكال الكلي على مدبر الكون ومسيره ، والى فقدان التصميم الذي يناقض الحيرة . وقد عبر عن ذلك شاعر بقوله :

والسعي في الرزق ، والارزاق قد قسمت
بغي ، ألا ان بغي المرء يصرعه

وقال آخر :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

وليست بي حاجة الى التوكيد ان المفكرين المسلمين استخلصوا الحكمة الحقيقية من هذا الاعتقاد ، وميزوها من الاتكال والاستسلام ، دافعين عن العزة الالهية الظلم ، مستشهدين بقول الشاعر :

القاه في اليم مكتوفاً وقال له   اياك اياك ان تبتل بالماء

والمظهر الثاني للازمة الارتجال. ومن كان حائراً فاقد التصميم لا يمكن الا ان يكون مرتجلًا . وأدبنا يعرف البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ومن امثالنا «لكل مقام مقال». وخير الخطباء المرتجل . والحال عندنا ما يجبهنا لا ما نجبهه ونعد له العدة ونرسم له الخطة ونحكم له القول . والمشاكل عندنا تدنو من ابصارنا دنواً يحول دون رؤيتها كاملة واضحة . وحين نفاجأ بها نرتجل لها الحلول ، فنصيب مرة ونخطىء عشرات المرات .

والمظهر الثالث للازمة الفكرية فقدان العقلانية : التفكير الصحيح القائم على المنطق والدرس والتأمل . والمفكرون لم يشتركوا في بناء حاضرنا اشتراكاً فعلياً ، ولم يُفسح لهم مجال العمل. وليس عندنا مؤسسات تضم طوائف متنوعة من المفكرين، كل في الناحية التي تخصص فيها وحذقها . وليس عندنا مؤلفون يعكفون على دراسة شؤوننا المختلفة، ويدونون آراءهم، ويورثونها من يأتي بعدهم، حتى يتكون تراث علمي لكل ناحية من نواحي الحياة. وليس عندنا مكتبات تخصص: مكتبة للعلوم الاقتصادية، ومكتبة للعلوم الاجتماعية ، ومكتبة للعلوم الزراعية وهكذا . واذا ألزمنا على البحث استعرنا ما قال المؤلفون الاجانب ، واستشهدنا به ، وتباهينا في الوصول اليه. وليس عندنا مؤتمرات

تبحث ضروباً معينة من المشاكل، وتثير حولها الجدل وتستدعي اولي الخبرة والعلم لمناقشتها . وليس عندنا جمعيات فكرية تناصر فِكَراً معينة وتوضحها وتدعو اليها . وقد ركزنا عنايتنا في السياسة بعد ان جردناها من اهم مقوماتها فأضحت صناعة لفظية فحسب . اما السياسة بمدلولها الصحيح ، السياسة الاقتصادية والاجتماعية والصناعية وما أشبهها فلم نُعِرها اهتماماً كافياً .

والمظهر الرابع للازمة، فقدان الجرأة والحرية الفكرية ونقد الذات . ولم يتكامل عندنا الاحساس بالمسؤولية الجماعية حتى ينشأ عنه قول الحق خالصاً لوجه الله والوطن . وصاحب الفكر عندنا موضع شبهة، اذا خرج عن المألوف اتهم بالمروق او الكفر، وهكذا يظل الفكر الحر حبيساً في الصدور، يدور فيها لينهشها ويوجعها ، والازمة تتعقد جيلاً بعد جيل . والحياة الحديثة التي ينعم بها غيرنا، ونتحسر نحن عليها حين نشاهدها في اسفارنا في الغرب، هذه الحياة بشقيها المادي والمعنوي، لم تهبط من السماء ولم تتكون طفرة ، وانما نمت نمواً مطرداً بفضل مشاركة المفكرين والعلماء . واود ان اشير هنا الى الجمعية الفابية[٧] The Fabian Society التي تأسست في انكلترا سنة ١٨٨٣ ، والتي مهدت الطريق لقيام الحكم الديموقراطي الذي نشاهده داخل البلاد الانكليزية، والذي افادت منه سائر الشعوب الغربية. لقد كان عمل هذه الجمعية عقلياً

محضاً ، يعالج مشاكل المجتمـــع مشكلة ، ويكتب فيها الرسائل تنويراً للرأي العام ، وللحكومات المتعـاقبة . وكانت ابحاثهـا تعتمد على التفكير الحر والعلم المجرد والتخصص ، تقصد خدمة المجتمع وحده . وقد أبى رجال هذه الجمعية ان يتولوا الحكم ، لان هدفهم لم يكن الوصول الى الحكم ، بل وضع الاسس العلمية للحكم الصـــالح، والاستمرار في دعمه بالآراء السليمة ، وقد خشوا إن تولوا الحكم ان يشغلوا به عن هدفهم الاساسي الذي وقفوا جهودهم عليه .

والمظهر الخامس للازمة الفكرية، تركيز ابصارنا في القديم واحترام سنن القدامى الى حد التقديس مرددين عبـــارة سحرية غامضة هي: (لا يصلح هذا الزمن الا بما صلح به اوله) . وهذه العبارة معناها: عيشوا في الصحارى والكهوف وامتطوا النياق، وارتدوا الجلابيب الفضفــاضة ، وتعالجوا بالـكي ، واتركوا الامراض تفتك في الخلق ، واكتفوا من العلم بقراءة الادعية ، واتركوا خيرات الارض في بطن الارض .

ولا ينكر ان العرب في تاريخهم مروا بمراحل من القـوة والسيادة وتألق الفكر والعناية بالعلم التجريبي وخدمة الحضارة الانسانية، وانهم تركوا تراثاً علميا يحق لهم ان يباهوا به الامم. ولكن تلك المراحل قد مضت . ولا يردهـــا التحسر ولا

الاعجاب السلبي ولا التقليد. وانما يردها امران: الاول، البحث عن العوامل الحقيقية التي سببت ذلك الاشراق العقلي والازدهار المادي ، للاستفادة منهـــا في بناء حديثنا ـ لان للامم طبائع وخصائص تجعلهـــا تتأثر بانواع خاصة من الالقحة منتزعة من اصلابها ـ ولشد العزائم الخائرة بأحاديث المجد . ويردها ثانياً، العزم والتصميم على وصل القديم بالحديث . والحديث اليوم ليس عندنا منه شيء البتة . فيجب اذن اخذه حيث يوجد بلا تردد . ومن الخطأ ان نتصور ان الجديد يبدأ حيث انتهى قديمنا . فبين القديم والجديد هوة سحيقة لا نستطيع ان نملأها مهما اوتينا من قوة وحول . ولا مفر من البدء حيث وصلت الامم المتحضرة. وهذا يقتضي ان نقف من الحضارة الحديثة عامة، موقفاً غير الموقف الذي نقفه اليوم، او على الاقل يريدنا ان نقفه فريق من الناس. فالحضارة الحديثة ، بعلمها التجريبي ، وصناعتها ، وابحاثها القائمة على الاحصاء ، ونظرها الى قيمة الفرد في المجتمع ، واخذهـــا بأسباب الحكم الحديث، والعدالة الاجتماعية ـ هذه الحضارة هي الجسر الوحيد الذي يمكن ان يصل بين قديمنا وحديثنا .

هذه هي مظاهر الازمة الفكرية التي نعانيها اليوم . ولا بد من ان يكون لهـــا اشباه وارداف . ولا بد ان يكون فيما اوردت تعميم او تلميح . والواجب يقتضي شيئاً من الاسهاب

وضرب المثل . ولذا أستشهد بثلاث قضايا رئيسة: الاولى، نظام الحكم الذي لم نرسُ فيه على اساس بعد. والثانية، حياتنا المادية القلقة. والثالثة، حياتنا المعنوية او الروحية التي تنطوي على كثير من الخلل .

٣ ـ نظام الحكم

يقول برتراند رسل في معرض حديثه عن الحكومات واثرها في تكوين الشعوب : « اعطوني جيشاً حسن التجهيز مع سلطة لاعطائه راتباً وطعاماً اكثر مما يناله عامة الناس، وانا كفيل في خلال ثلاثين عاماً اناجعل معظم المواطنين يعتقدون ان مجموع اثنين واثنين يساوي ثلاثة ، وان الماء يتجمد حين يسخن ، وانه يغلي حين يبرد ، او اي اعتقاد آخر سخيف ، قد يكون فيه نفع للدولة »[٨].

ومهما يكن هذا الحكم عجيباً، فالواقع ان الدولة تملك القدرة على توجيه الشعب الوجهة التي تريدها . وفي الامثال المنتزعة من التجربة : الناس على دين ملوكهم .

ومع ذلك، ما يزال العرب مختلفين في نوع الدولة التي يجب ان تضطلع بمسؤولية الحكم . وهناك ثلاثة اتجاهات متباينة متصارعة : الاول يدعو الى الحكومة الدينية التي تستمد سلطتها

من التشريع الديني . والثاني يدعو الى الحكومة الطائفية التي تستمد سلطتها من رغبات الطوائف المختلفة . والثالث يدعو الى الحكومة العلمانية التي تستمد سلطتها من صميم المصلحة العامة المتطورة بتطور الشعب ، والتي تساوي بين جميع المواطنين مساواة تامة في الحقوق والواجبات . وهذا النوع الاخير هو الذي اختاره معظم سكان العالم في الشرق والغرب، بعد تجارب مريرة ، ومحن اليمة حلت بالافراد والجماعات التي تتكون منها الدول .

وقد اساء الناس في بلادنا فهم المقصود من الحكومة العلمانية، وحسبوها حكومة لا دينية تناهض الدين وتقوض دعائمه. وليس هذا بصحيح . فالدلالة اللغوية والتاريخية تشير الى انها حكومة عصرية تقصد امرين : الاول العدالة المطلقة والمساواة التامة بين جميع الافراد بقطع النظر عن معتقداتهم . والثاني الاخذ بالتشريع المدني الذي يستند الى ما توصلت اليه العلوم الحديثة في معالجة شؤون المجتمع المادية والمعنوية، والذي يتكيف حسب المراحل المتطورة التي تجتازها الشعوب . وليس هذان الهدفان مناقضين لجوهر الدين او داعيين الى مناهضة العقائد الدينية ، بل هما مستوحيان من المثل العليا التى جاءت بها الاديان السماوية. وهناك فرق بين فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن المجتمع.

فالدين لا يفصل عن المجتمع كما لا تفصل الروح عن الجسم الحي. وحياة الروح يعالجها الدين بطرقه الخاصة ، وحياة الجسم تعالجها العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية بأساليبها النامية المتطورة. وقد فصل الطب الجثماني عن الطب الروحاني بعد ان تشاركا مدة طويلة من الزمن . ويرجع ذلك الى ان الحياة اعز على الانسان من كل شيء . وفي سبيل الحفاظ عليها ضحى شيئاً من كبريائه الديني . وما زال هناك افراد يعيشون في فترة ما قبل الفصل ويتعرضون لاخطار جسيمة. وربط العلاجين الديني والمدني معاً لا بد من ان يؤدي الى تنافر في الاتجاهات، واختلاف في توزع السلطات ، واحتكاك بين المذاهب والطوائف على حساب الدولة نفسها . وقد علمنا التاريخ الانساني في جميع مراحله انه ما من مرة اجتمعت فيها السلطتان : المدنية والدينية في يد واحدة، الا ضيمت احداهما على حساب الاخرى. ولذا توصل الناس في معظم دول العالم ، بعد طول التجربة ، الى وجوب فصل هاتين السلطتين كي تسير كلٌ في مجراها الطبيعي، نامية متطورة لمصلحتها معاً ، ولمصلحة المجتمع الانساني كله .

وينبغي ان اذكر هنا ان الاسلام الذي يُتّهم بالجمود ظلماً قد مهد السبيل، عن طريق القياس والاجتهاد والاجماع والمصالح المرسلة ، الى هذا التطور في كلتا الناحيتين ، في شؤون الدين

والدنيا معاً . ولولا ذلك لما ساير المجتمع الاسلامي، في مراحله الاولى ، التطور الانساني وواكبه وشارك في تقدمه المادي والمعنوي بسهم وافر . ولكن المسلمين في عصور الانحطاط ، وبعض المسلمين في العصر الحاضر ، سدوا هذه المنافذ خشية عواقبها . ولكن عواقب السد كانت أسوأ من عواقب الفتح ، بدليل الاحوال السائدة في معظم العالم الاسلامي اليوم، ومقابلتها بأحوالهم في المراحل الاولى، او بأحوال غيرهم في الوقت الحاضر.

يضاف الى ذلك ان التشريع المدني قد شق طريقه في معظم البلدان الاسلامية ، واستطاع المشرعون المحدّثون ، ان يوفقوا بينه وبين التشريع الاسلامي ، في وجه معارضة تقل وتكثر حسب اوضاع تلك البلدان . وانقل هنا فقرة لمشرع ذي مكانة ورأي ، هو عبد الحميد بدوي ، القاضي في محكمة العدل الدولية في لاهاي ، وردت في خطاب له في اللجنة التي عهد اليها وضع مشروع دستور مصر المستقلة عام ١٩٢٢ . قال : « لئن كانت الاقليات تذكر الماضي البعيد وما كان يقع عليها من المظالم والمغارم ، فقد كانت الاكثرية والاقلية تعيشان في ظل حكومة استبدادية ، تُظلم فيها الاكثرية كما تظلم الاقلية. ولسنا نريد او نفكر في نظامنا الحديث ان نحيي آثار التاريخ القديم . ان الفارق الديني اخذ يضعف حتى عندنا . ولن يطول عليه

الزمن حتى يمحي في علاقاتنا الاجتماعية ، وتعفى تماماً جميع آثاره... فيجب ان لا نستبقي شبح هذا الخلاف محسوساً ماثلاً للعيان . وهذه المسألة اخشى منها كثيراً في عصر قلّت فيه مظاهر التفرقة الدينية ، واصبح العامل الذي يربط بين الناس في حياتهم الاجتماعية عامل المصلحة المشتركة ، بغير نظر الى مذهب ولا دين . واني لاتمنى ان ارى اليوم الذي يجمع كل اسباب مرافقنا حتى في الزواج والطلاق وما الى ذلك من احوالنا الشخصية تحت نظام واحد بحيث نعيش جميعاً في ظل حياة مدنية محكمة منظمة . نريد سياسة قومية خالصة ، لا تلتفت في طريقها النبيل الى الاديان والمذاهب، ولكنها تتجه دائماً الى مصلحة الوطن»[٩] .

ونلتفت بعد ذلك الى بعض البلدان العربية ، التي تأخذ بالنظام الطائفي ، فنرى تبرماً بهذا النظام . وان صدق الحدس فان مصير هذا النظام الى افول عاجل. لان توزع الولاء وتنافر الاهواء ، يضعفان كيان الدولة . واولو الرأي يدركون الخطر الجسيم المحيط بهم في الظروف الحاضرة ، والعدو مقيم على الثغور ، يبيت لهم الشر ويتربص بهم الدوائر .

وقد آن ان يُدخل العرب في حسابهم ثلاثة امور: الاول ، ان القومية الايجابية تستند الى العدالة التامة بين المواطنين وتعمل على صهرهم في مجموع واحد متراص البنيان بمختلف الوسائل ،

من اهمهـا التشريـع . وفقدان العدالة يورث التذمر ويؤدي في النهاية الى فتح ثغرة ينفذ منها العدو . والثاني ، ان القومية الايجابية تحتم الاخذ بأسباب الحضارة الحديثة ، وهذه الحضارة قد توصلت الى عـلاج علمي حديث لمختلف شؤون الدولة ، الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ولا مفر من اخذ هذا العلاج وتفهمه والاستفادة منه . والثالث : ان الانسجام مع الحضارة العالمية امر يقتضيه التطور الحديث في وسائل النقل والاتصال على مختلف انواعهـا . وهذا الانسجام يستلزم التوحد والتقارب والتعاون وازالة جميع عوامل العزلة والتفرد . واذا كان ذلك لازماً في الحقـل الدولي ، فهو ألزم منه في الحقل الداخلي بين مختلف الجماعات التي تكوّن الشعب الواحد .

٤ ـ الحياة المادية

اما الحياة المادية فلست ازعم اني ملم بمشاكلها . وغيري من اصحاب الاختصاص اطول باعاً واغزر علماً . ولكني ادلي برأيي المتواضع لاتمام نواحي البحث .

وأسترعي النظر الى ثلاثة امور جوهرية لا بد من تحقيقهـا لاقامة حياتنا الماديه على اساس سليم : الاول التصنيع . والثاني اصلاح الريف ، والثالث استثمار الثروات الطبيعية ، من انسانية ومائية وزراعية وحيوانية على اسس علمية حديثة .

ففي بلاد العرب ـ التي يُتم بعضهـا بعضاً ـ قوى طبيعية غزيرة كالنفط والماء والمعادن والتربة الخصبة والمناخ المتنوع. ولا يعوزنا سوى الخبرة الفنية ورأس المـال . وليس من العسير الحصول عليهما . ومن العجب انا لم نلتفت في معاهدنا العالية الى التعليم الفني الذي يُعد شبابنا للصناعات القومية، ولم ندرس الطاقة الصناعية دراسة احصائية، ولم نرسم سياسة صناعية تنفّذ في مراحل، ولم ننسق علاقتنا مع العالم الخارجي على اساس تبادل المصنوعات. ولو دهمتنا حرب لا نقطع عنا الخيط والمسمار وادوات الطعـام واللباس والعلاج وما اشبه من الاوائل الاساسية التي يمكن ان نضعهـا في بلادنا في وقت السلم والحرب ، فضلاً عن الصناعـات الثقيلة كالمحراث والسيارة والحافلة والدبابة وما اليها .

ونحن نعيش في عصر الآلة ، وليس عندنا من الآلة صغيرة او كبيرة . وقد دخلت الصناعة مناطق مجاورة لـنا . وعلى حدودنا دويلة عدو اخذت بأسبـاب التصنيع على ضعف طاقتها وصغر رقعتها وبُعد البلدان التي تصدر اليها. وهي تحاول ان تعيل نفسها بنفسها صناعيـاً ، وان تتفرد بمصنوعات تبادل بها . وطاقتنا المادية وظروفنا الدولية خير من طاقتهـا وظروفهـا . ومع ذلك لم نفكر في مجاراتها ـ على الاقل ـ في التصنيع .

وعندنا من العلوم الآلية المصطلحُ فقط. وقد فكرنا ـ بجمد

الله – بنحته من لغتنا وتخريجه بالصناعة اللغوية قبل ان نفكر بالمدلول نفسه واستخراجه بالصناعة العلمية . والامر الطبيعي ان يسبق المدلولُ الدلالةَ، والمعنى المبنى، والحسُّ التعبيرَ . ولكننا خالفنا هذا السير الطبيعي وعكسناه. وهذا يمثل ازمتنا الفكرية اصدق تمثيل .

وحياتنا الريفية ، وهي المعين الذي يمدنا بالدم الجديد والحيوية المتدفقة والذهن الصافي ، حياة قلقة مضطربة . ونظام المجتمع الريفي ما يزال كما كان منذ مئات السنين . وبعض القرى – في الوطن العربي الكبير – تعيش عيشة البداوة الاولى . وريفنا يؤلف الجزء الاكبر من بلادنا . وقد نشأت في البلاد المتحضرة، وحتى في بلد على حدودنا ، القرى التعاونية التي يعطي فيها الفرد كل طاقته الفردية ، ويأخذ منها حاجته . وما يفيض يبذل في تطوير القرية وتوسيع حدودها واستغلال مواردها استغلالاً كثيفاً ، ورفع مستوى حياتها . وهذا النظام الريفي الحديث مختلف باختلاف طبائع البلدان واحوالها المعاشية . وهو قائم على اسس اقتصادية وفنية واجتماعية حديثة. وهو علاوة على ما يحققه من رخاء مادي لجميع السكان على السواء ، يحقق التضامن الجماعي ، ويحول دون تدفق القرويين الى المدن – وهذه احدى مشاكلنا المستعصية – ويفسح المجال لازدهار الريف الى جانب

ازدهار المدن ، ويقضي على كثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية المستحكمة ، كالاقطاعية والعصبية والقبلية والتبذير في الوقت والجهد دون طائل .

هذا النظام لم يطبق في اي بلد عربي ، ولم يجرّب في اية قرية ، ولم يُدرس ، مع انا نراه من وراء الحدود ونلمس أثاره.

واعجب من ذلك ، ان التعليم الزراعي الحديث ما يزال في بداءته في بعض البلدان العربية ، ومفقوداً في معظمها ، مع ان طاقتنا الزراعية غزيرة الى حد كبير . وحتى المزارع النموذجية نادرة الوجود لتمد الفلاح بما يحتاج اليه من معلومات تتعلق بتربية ماشيته ومكافحة آفاته الزراعية وتصريف حاصلاته وما الى ذلك.

وفي بلادنا ثروات طبيعية متنوعة : انسانية وحيوانية ومائية ونفطية ومعدنية . وقد استفاد بعض الشركات الاجنبية من بعض هذه الثروات واستثمرها. ولم نُعدّ نحن انفسنا لاستثمارها ، او على الاقل ، للاشتراك في استثمارها . واذا انسحبت هذه الشركات لسبب من الاسباب ظلت ثرواتنا في اغوار الارض كما كانت من عهد آدم عليه السلام .

وبلادنا عامة تعاني خفض مستوى المعيشة . والسبيل الرئيس لرفع مستواها ، هو زيادة نتاجها . وطريقة زيادة النتاج الاولى ،

التصنيع . لأن الآلة اقوى من الاختيار الطبيعي الذي يمثّل سنة من سنن الكون . وهي الوسيلة التي توسل بها العالم المتحضر لانتقاله الى الدور الزاهر الذي ينعم به اليوم . والآلة توفر في الوقت والجهد، وتحقق التصميم الذي يرسمه الانسان المفكر المبدع لبلوغ حياة متصاعدة في الرقي .

ولست مطيلاً في هذه الناحية لشعوري اني متطفل . وأنتقل الى الحياة المعنوية ، الى كياننا العقلي والاخلاقي والروحي .

٥ – الحياة المعنوية

نشأ العربي في عهوده الاولى، في بيئة متمردة قاحلة جافة ، فنفر منها ، ولم ينسجم معها . في حين كانت الطبيعة الغربية طيّعة خصبة رطبة . ولذلك تقرب اليها الغربي وتفاعل واياها . وادى هذا الفارق الطبيعي الى ان يخاف العربي الطبيعة ويمنحها قوى سحرية ويتعوذ منها ، ويعيش في خياله منطوياً على نفسه، منتزعاً من تصوراته واحلامه صوراً لدنيا اخرى يزينها ويزخرفها ما مده الخيال واعانته العاطفة . اما الغربي فعاشر الطبيعة ودرسها وتفهم اسرارها واستنبط قوانينها واغتصب قواها وسخرها لرقيه ورفهه .

وكان من أثر ذلك ان تكونت عقلية العربي الاول على

منوال سانج، وسارت حياته على انماط بدائية متواترة ، وترك للطبيعة اسرارهـــا كما ترك خيراتها . وتتكشف هذه الحقيقة في طبيعة اللغة العربية في عهودها الاولى – في نحوها وعروضهـــا وادبها – فهي اشبه بالشجرة ذات الاغصان المتفرعة، تنطلق من الجذور وتمتد في اشكال محدودة متكررة .

وظل هذا الطابع سائداً الى ان خرج العرب من بيئتهم الاولى ونزلوا بلاداً يكثر فيهـــا الخصب والرخاء ، فاخذوا يتحررون تدريجاً من آثار البيئة الاولى ، ويلقحون عقليتهم بنتاج الشعوب التي نزلوا بينهـــا ، ويكيفونها حسب اجوائهـا الجديدة . وادى هـذا الامتزاج والاحتكاك الى فورات عقلية وأدبية نجدها في التراث العربي الرفيع الذي وصلنا اقله وضاع اكثره .

ولكن العرب، فيما بعد، اصيبوا بنكسات سياسية، وتوالت عليهم النكبات. فداهمهم التتر ، وحكمهم الاعاجم باسم الدين، وغلبهم الاستعمار على امرهم و كبلهم بقيود ، فضاعت وحدتهم وأسِنت عقولهم وضل رشادهم . ولم يُرزَقوا العقول المتحررة المبدعة ، تبحث في اسرار النكبات ، بتجرد واخلاص وجرأة ، وتعمل للعودة الى المجد القديم وربطه بالحديث .

وامامهم اليوم سبل واضحة. فعليهم اولاً: ان يعيدوا النظر

في التاريخ ويفهموا العلل الحقيقية لقوتهم وضعفهم ، لارتفـاعهم وانخفاضهم ، لنصرهم وهزيمتهم ، متجردين من الاهواء والكبرياء وربط النتائج بعلل واهية لا اساس لها .

ثانياً : ان يُقبلوا على العلوم الحديثة التي جدت بلا تردد ولا احجام . ولا سيما العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية .

ثالثاً : ان يأخذوا بأسباب البحث العلمي القائم على التجربة والبرهان وربط العلة بالمعلول .

رابعاً : ان يتحرروا من آثار الذهنية القديمة المشبعة بالخيال والعاطفة .

خامساً : ان يتفاعلوا مع الطبيعة ، لفهم اسرارها، وكشف قوانينها ، للافادة منهـا في تطوير حياتهم وبلادهم . والعلم ينشأ حينما يعزم المجتمع على السيطرة على عالمه او اعادة بنائه .

سادساً : ان يُعنوا بالاحصاء والارقام ليستخلصوا منهـــا الحقائق عن حاضرهم ورسم الخطط لمستقبلهم .

سابعاً : ان يؤمنوا بأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذهـا حيثما وجدهـا ، وقد كانت هذه القاعدة الذهبية قـــائدهم في عصور الازدهار . والعزلة العقلية تورث الجدب والخمول . ولذا كانت الامم البحرية التي تكثر اسفارها ، دائمة التجدد في تفكيرها .

والمعارف انسانية لا تعرف العصبية ، ولا تقف وراء الحدود والسدود .

اما اخلاقنا فقد تأزمت بتأزم حياتنا المادية . والاخلاق والعادات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحياة المادية ، تتأثر بها وتتكيف حسب انماطها .

وقد تبدو الظواهر الاخلاقية في غاية السوء ، ومؤدية الى اوخم العواقب في حياة الامة ، فيتوهم الباحثون انها علة العلل في ما تعانيه الامة من فقر وحرمان . والحال ان هذه الظواهر تزيد في سوء الاوضاع السيئة بذاتها. واعتبارها علة العلل يضلل المصلحين . وقد ظنها كذلك بعض الدينيين والاخلاقيين ، وحاولوا ان يعالجوها بالوعظ والارشاد وحدهما فلم يفلحوا . وخالفهم في ذلك العقلانيون ورأوا العلة الحقيقية تكمن في طبيعة الحياة نفسها ، في نظمها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تقوم عليها .

ونحن ورثنا من طور البداوة ازدراء الصناعة ، واعتبارها مخلة بالمروءة. فنشأ عن ذلك ان صرنا كالنياق المندفعة في الفيافي ، كل تسير في طريق تشقه لنفسها ، وحرمنا التعاون الذي يلزم طور التصنيع . ففي الامة الصناعية يعتبر كل فرد نفسه جزءاً في آلة واحدة ، وجميع الاجزاء متساوية بتأثيرها في سير

الآلة . واذا تعطل اصغر جزء تعطلت الآلة جميعها . والقيمة الصحيحة هي في تأدية كل جزء عمله على احسن وجه .

ومعظم العرب يعيشون على الفلاحة، واقلهم على التجارة المحلية . ولا يرافق هاتين المهنتين فن او علم . ولذلك تدلى مستوى الحياة، وشحت الموارد ، وضاقت آفاق العمل . والفقر ابو الرذائل ومبعث الانحرافات الخلقية .

يضاف الى ذلك انا عشنا مدة طويلة في ظل حكم فردي استبدادي. ولم نعرف الحكم الديموقراطي الصحيح، الذي يساوي بين جميع المواطنين ، في حقوقهم وواجباتهم ، والذي يجعل المقياس الحقيقي للنهوض بالعمل ، الكفاية والخبرة، والذي يرى الوظيفة عملاً متوجهاً الى خدمة المواطنين . ونشأ عندنا – تبعاً لذلك – الاستبداد والتزلف والرياء ، وفساد الحكم .

واورثنا مقام السوء، الذي انزلنا فيه المرأة ، ظلماً وعدواناً، شروراً كثيرة . فقد كانت وما تزال في نظر الكثيرين لا تستحق ان تتمتع بحقوقها كاملة . وقد استند فريق من الناس الى الدين، يؤولون نصوصه كما يريدون. والدين براء مما يزعمون. فانه اكرمها واعزها . فقد نهى الاسلام عن ان يقول الولد لامه اف او ان ينهرها ، وامره ان يقول لها قولاً كريماً . وليس اجل من القول المأثور: «الجنة تحت اقدام الامهات». والام هي

مكونة الامة ومربيتها وباذرة بذور الخير والصلاح فيها . وما دامت كرامتها مهضومة ، فلن تكمل كرامة الامة . وكلما ارتفعت اصوات لرد حقوقها ، وتوفير كرامتها ، ومعاملتها عضواً عاملاً منتجاً مكرماً ، ثارت ثائرة الظالمين ، واتكأوا على تقاليد لا يقرها دين ولا منطق . وقد نسي هؤلاء ان الشعوب تتنافس في نتاجها المادي والعقلي ، وان المرأة العربية بحالتها الحاضرة تجعل من العرب امة عرجاء ، تباري أمماً سليمة. ومنذ احتجزت المرأة وسجنت في عقر دارها ، ومصابيح الفن والجمال والخير مطفأة في دنيا العرب . وكل اصلاح اجتماعي ، مع هذه الحالة ، ترقيع لن يجدي فتيلاً .

ولم نول الفنون الجميلة عنايتنا . ولم نعرف اثرها في تكوين الاخلاق وصقلها وارهاف المشاعر. ولا يمكن ان يرقّ الشعور ويسمو ، في بلاد لا ترعى الفنون الجميلة ، ولا تنشىء اطفالها عليها . واين دور الموسيقى ، والحدائق الفسيحة ، والتماثيل الجميلة ، والبرك ذوات النوافير ، والمتاحف ؟ وكيف يمكن ان يشيع الجمال واناس يدعون الى ستر الجمال ؟ وكيف يمكن ان يتكون المزاج النبيل المرهف الحساس، وحيثما سرنا وجدنا مناظر تثير الاشمئزاز والانقباض؟ لقد اختفى الحفاء في معظم بلاد العالم، واختفت الاثواب الرثة ، والوجوه المشوهة ، والعاهات، ونحن

لا نسير ميلًا او ميلين ، دون ان نتعثر بمناظر مؤذية. وكل ما نفعله انا ندعو الى النظافة والنظام والدماثة ، دون ان نمهد لهـا بوسائل عملية. وقبل ان نقول للمواطنين: اخفضوا اصواتكم، ينبغي ان نعودهم سماع الموسيقى الهادئة ، التي توحي الرقة والدماثة . وقبل ان نقول لهم : اعتنوا بنظـافتكم ، ينبغي ان ننشىء لهم الحدائق الجميلة لتوحي اليهم النظافة . والنماذج الحية ادعى الى الاستجابة من النصائح والمواعظ .

٦ ــ الازمة الروحية

اما الازمة الروحية فلها مظهران : الاول ربط الدين بعجلة الدولة . وقد شرحنا ذلك فيما سبق . والثاني الصراع بين الدين والفلسفة . فمعظم علماء الدين يجدون حرجاً في الابحاث الفلسفية خشية زعزعة العقيدة . وهذا خطـأ . فلو ان الفلسفة لا تتطرق الى الفكر الا بارادتنا لجاز ان نلغي الفلسفة، ونغلق عقول الناس دونهـا . اما والفلسفة ، التأمل في الحياة النـاجم عن الاحتكاك الطبيعي بين المعقول والمنقول ، لا تُمنع ، فعلينا ان نجبهها . وبدلاً من ان نترك الفلسفة تصارع الدين خفية ، فتتولد الزندقة والشك والالحاد ، علينا ان نتركها تفعل في العقول فعلها ، ثم نجبه المسائل التي تثيرها ، ونحـاول الاجابة عنها من وجهة نظر الدين . وبعبارة اخرى : لنترك الفلسفة تثير الاسئلة ، ولنسلط

الدين عليها ، ليجيب عن هذه الاسئلة .

وبقي ان نسأل هل تناقض الفلسفة الدين؟ فاذا كانت تناقضه حقاً فلا سبيل الى الحؤول دون الزندقة والالحاد . ولكن الفلاسفة الغربيين الذين فتحوا باب الفلسفة على مصراعيه، لم يلحدوا جميعهم. نعم الحد افراد منهم وثبت معظمهم على الدين، وهذا يدل على ان الفلسفة لم تتمكن من محو الدين وتقويض بنيانه . ونشأ من تفاعل الفلسفة والدين علم الالهيات (او اللاهوت) الذي ظل ينمو ويتوسع ويتطور بنشوء المسائل الفلسفية ، وردود فحول الالهيين عليها . وعلى المسلمين في هذا العصر ان ينهجوا الطريق نفسه . ان يتركوا الفلسفة تمخض العقول كما تشاء ، ثم يشمروا عن سواعدهم للرد عما تثيره الفلسفة من مشاكل، بحرية واجتهاد. ومن رأيي ان هذا اثبت للدين ، من ترك الفلسفة تصرع العقائد الدينية خفية ، فينشأ منافقون او مشككون او ملحدون سراً ، او تنشأ ازمات روحية مستعصية .

وقد ذهب بعض الباحثين، الى ان الدين قد استوفى غرضه، واضحت موضوعاته التي طرقها قديماً موزعة بين ثلاثة علوم : الاول علم النفس الذي يتولى بحث علاقة الانسان بنفسه. والثاني علم الاجتماع ، الذي يتولى بحث علاقة الانسان بالانسان . والثالث علم الفلسفة الذي يتولى بحث علاقة الانسان بما وراء الطبيعة.

ولكن هذا المذهب لم يصح ، فالتوزيع لم ينه المشاكل. وما يزال في الدين نواح لم يتمكن عقل الانسان ، السجين في الهيكل المادي، من حلها. وهذه النواحي ليست من اختصاص العقل، وانما هي من اختصاص الوجدان والقانة والذوق . وقد شبه احد المفكرين الغربيين – Havelock Ellis – هذا الدين بالحب الذي يرزقه بعض الناس ، ويحرم منه بعضهم الآخر . فهو منحة الهية او نفحة علوية يسعد بها بعض الناس ويشقى بحرمانها بعضهم. وهذا مذهب الصوفيين الحقيقيين لا الشكليين، الذي قال فيه محمد عبده انه مرحلة عليا من مراتب الكمال الانساني .

وهو المذهب الذي يقول به جمهرة من المفكرين في الشرق والغرب . وعلى هذا فلا شيء قادر على محو الدين ، فهو باق ما بقيت السماوات ، وما ظلت هذه النجوم السابحات تدور في افلاكها ، مسبحة بالله الواحد الديان الرحمن الرحيم الذي خلقها وربط مصير الكرة الارضية، المتناهية في الصغر، بها .

٧– موقف العرب من الشرق والغرب

ويواجه العرب في الميدان السياسي ازمة لا تختلف عن سائر الازمات . وهي ذات صبغة داخلية وخارجية. اما الداخلية فلا

اخوض فيها الآن. واما الخارجية فتتركز في موقف العرب من الشرق والغرب .

واذا كان المرء يعجب لشيء، فلهذا التمثيل البارع الذي يقوم به محترفو السياسة. فهم حين يخلون الى انفسهم يسفرون عن وجوههم الحقيقية ويستشعرون الضعف. وحين يواجهون شعوبهم يضعون وجه الاسد ويزأرون زئيره. وحين يجتمعون الى رجال السياسة الدولية يضعون وجه الحرباء ويتلونون حسب مقتضى الاحوال .

والقول الصريح في هذا انه ليس للعرب اليوم كبير وزن في ميزان السياسة الدولية ، لا في نظر الشرق ولا في نظر الغرب . واذا كان هناك وزن فهو لموقع بلادهم الحربي وللقوى المتنوعة الكامنة في بطن الارض كالنفط والمعادن والماء والخصب الطبيعي . واذا شاؤوا حقاً ان يكون لهم وزن فلا بد من ان يسلكوا سبيلين واضحين غاية الوضوح . الاول : التحضير . عليهم ان يقودوا شعوبهم نحو الحضارة الحديثة . فالعصر اليوم عصر حضارة. وقيمة الامة فيما تقدمه الى العالم المتحضر من مساهمة مادية محسوسة . وهذه المساهمة تتبين في النواحي التالية : اولاً في مستوى الامة الحضري ؛ في توفير الحد الادنى من الكرامة الانسانية لافرادها، وفي توفير اسباب العيش الرغد لهم.

ثانياً ، في النتاج المادي . في مقدار ما تبدعه من صناعة تنقل ما سبقها من صناعة الامم الاخرى خطوة الى الامام . في مصانع العقاقير الطبية والقطارات والسيارات والطائرات والبرادات والجسور، في المختبرات الكيماوية والطبيعية والجرثومية والذرية. ثالثاً، في النتاج العقلي والفني والادبي. فيما ينتجه الفلاسفة والعلماء والادباء والشعراء والموسيقيون والرسامون على صعيد النتاج العالمي .

والسبيل الثاني التكتل، على نحو ما ، في كتلة عربية متحالفة تحالفاً صادقاً ، او متحدة في نظام « فدرالي » او « كونفدرالي» او اي ضرب من النظم السياسية التي تتفق واوضاعها الحاضرة .

ان التحالف يقوم اليوم بين دول غير متجانسة لغة وجنساً، او متجاورة ارضاً وماء ، في سبيل الحفاظ على سلامتها وعلى السلم العالمي. وهذه « الايالات » العربية الصغيرة القائمة اليوم لا تستطيع ان تكون دولاً بمواردها الخاصة. ومن جهة اخرى لا تستطيع ان تنفذ المشاريع العمرانية التي تطلبها الدولة الحديثة بله المشاريع الحضرية العالمية التي اشرنا اليها سابقاً . يضاف الى ذلك عامل اعظم خطورة ، هو وجود عدو في قلب هذه الكتلة يعيش على نمط حضري ويتحفز للوثوب — حينما تواتيه الفرصة — ليمحو هذه « الايالات » الواحدة بعد الاخرى . ويحار المرء مع

هذه الاسباب في تبرير الجفاء والتدابر الواقعيين بين اعضاء هذه الكتلة . ولا يستطيع ان يجد سوى علة واحدة هي ارادة داخلية او خارجية ليكونوا «لقماً» مستساغة يسيرة المضغ والبلع!

ان المرء لا يسعه الا ان يضحك او يبكي حين يرى سفيراً او وزيراً مفوضاً « لايالة » لا يتجاوز عدد سكانها مليوناً ونصف المليون او ثلاثة ملايين يمثل « ايالته » في امريكا او انكلترا او فرنسا او الروسيا ! اي شعور يجول في اعماق هذا الممثل — ولو كان ممثلاً حقاً — لا سيما حين يكلف باداء مهمة سياسية في دولة من تلك الدول ؟

وهل يستغرب — بعد هذا — ان هان امر العرب على الشرق والغرب على السواء ؟ لقد كشف الدكتور وليم ادي — سفير اميركا سابقاً في العربية السعودية — عن موقف ترومان رئيس الولايات المتحدة السابق من العرب حين اراد ان يتخذ موقفاً حاسماً من الخلاف الناشب بينهم وبين اليهود . وذكر انه قال امام مبعوثيه السياسيين : « انا آسف ايها السادة ! اني مسؤول امام مئات الالوف العاملين في سبيل نجاح الصهيونية ، في حين لا يوجد مئات الوف من العرب بين الناخبين الذين سيصوتون لي ولحزبي »[١٠] . والواقع ان ترومان وازن بين العرب واليهود ، كما وازن غيره سابقاً بينهما في مناسبات كثيرة

فرجحت كفة اليهود ! ويقول بعضهم ان هذا الموقف قد تحسن عن ذي قبل . ولكن هـــذا التحسن لن يجدي الا ان تحقق الامران السابقان : تحضر العرب اولاً ، وتكتلهم ثانياً .

ترى ، أفكر العرب ، قبل الانحياز الى الشرق او الغرب، في شعور هذين الطرفين الحقيقي نحوهم ، في قيمتهم الذاتيـة في العالم المتحضر وفي السياسة الدولية ، وفي مقدار الكسب الذي يصيبه احد الطرفين بانحيازهم اليه ؟ وهـل فكروا في مغزى اجماع الشرق والغرب المتنافسين على مؤازرة خصومهم مؤازرة سافرة ؟ واذا انتهت هذه المنافسة في يوم من الايام – وهـذا ليس مستحيلاً – فاية قيمة تبقى لهم ؟ وهل فكروا في مغزى التباري الصادق في خطب ود الاتراك مثلاً ؟.

نعم ، يبقى بعد هذا كله ثلاثة امور : الاول موقع بلادهم الحربي. والثاني القوى الدفينة في بطن الارض . والثالث اليقظة الشعبية التي لا بد من ان تشتد على مر الايام وتوالي الخطوب. وهذه امور يعرفها الشرق والغرب معرفة جيدة ويحرصان عليها كل الحرص . ومعرفة العرب انفسهم اياها وحرصهم عليها دون مـــا ينبغي . ويحول دون التقدير الصحيح ظروف وعوامل داخلية كثيرة لا تخفى على ذي فطنة..

واي الفريقين المتنافسين يظفر بهـذه الامور ؟ ان الجواب

يتوقف على ما يبديه كل منهما من مؤازرة حقيقية وتفهم صحيح للنفسية العربية المتطورة والاحداث والاتجاهات التي تتمخض عنها السنوات المقبلة .

والذي يبدو ان بيد الطرف الغربي خيوطاً تشد هذه الكتلة اليه . وهذه الخيوط اصابها الوهن اخيراً ، واذا استمر الوهن فقد تتقطع ، وتصبح الفرص متساوية بين الطرفين ان لم تجنح الى الطرف الآخر

واذا شاء الطرف الغربي الحفاظ على ما بيده وتقويته فلا بد له من ادراك اربعة امور :

الاول: تفهم القومية العربية تفهماً صحيحاً خالياً من الهوى، لا سيما ذلك الهوى الذي يبثه بدهاء وخبث خصوم العرب لنفعهم الخاص . فالقومية العربية الرصينة الحكيمة هي جماع المثل العليا المتأصلة في العرب والتي لا غنى للوجود العربي عنها. واذا ذهبت هذه المثل فسيملأ الفراغ مثل اخرى . ولا تستغني امة عن مثل عليا تصبو اليها وتستشرفها . هذا الى انه من العسير كل العسير استئصال تلك الرواسب الدفينة في اعماق العرب . واستئصالها لا يتم الا على حساب غيرها .

الثاني : تفهم حاجة العرب في هذه الظروف . وهذه

الحاجة تتركز في امرين : الاول الحاجـة الملحـــة الى بذور الحضارة الصحيحة تنقل اليهم باخلاص وصدق ، لينموها هم انفسهم. ومن الخطأ التصور ان في ذلك خسارة . والتلكؤ عن اعطائهم اياها يؤخر اجلها ولكن لا يحول دونهـا . لان المرء اذا احس بحاجة الى شيء ، وان حياته متوقفة عليـه ، لا يمكن الا ان يصل اليه. ومن الخير ان يصل اليه وهو صديق متعاون لا وهو عدو منابذ. والامر الثاني مساعدتهم على توطيد الحكم الديموقراطي الصحيح بما يحمل بين طياته من نظم حديثة في الاقتصاد والاجتماع والادارة .

الثالث : الوقوف موقف الانصاف ، او على الاقل الحياد، من النزاع القائم بينهم وبين الصهيونية الطامعة في الاستيلاء على انهارهم وسهولهم من النيل الى الرافدين .

رابعاً : التخلي عن مؤازرة القوى الاستعمارية الرعناء التي تعيش بعقلية ما قبل الحربين العالميتين وخاصة في شمال افريقيا.

هذه هي الامور التي يحسن ان تدرس وتتفهم باخلاص قبل تعقد المشاكل وفوات الفرصة . ومن العبث بعدئذ ان يستدرك الحال افراد من محترفي تجـارة الآراء، او اصدقاء مخلصون . فقد يطوح الوعي المتزايد باولئك وهؤلاء على السواء ، وقـــد

تسد السبل كلها امام صداقة لها قيمة في الايام السود .

هذه هي ازمة الفكر العربي ومظاهرها وشواهدها ، عرضناها بتجرد واخلاص بقدر ما طاوع الفكر ، والله تعالى من وراء القصد .

الفصل الثاني

ما العروبة ؟

شاعت في هذه الايام لفظة « العروبة » شيوعاً كبيراً في مختلف البيئات العربية سواء ارسمية كانت ام غير رسمية. فرؤساء الحكومات العربية يستعملونها في خطبهم؛ والصحف ترددها في شتى الظروف حتى يندر ان تصدر جريدة يومية دون ان ترد فيها هذه اللفظة؛ والمؤلفون في المباحث السياسية العربية يرددونها في موطن التحدث عن العلاقات السياسية القائمة بين البلدان العربية؛ والشباب العربي الذي يعنى بالقضايا العربية يذكرها، وجمهور كبير من الشعب العربي في المشارق والمغارب يسمعها .

وقد حان الوقت لفحص هذه اللفظة فحصاً علمياً : ما معناها، وما مدلولها ، وما تعريفها الجامع المانع ؟

ورب قائل يقول : ليكن مدلولها ما كان . فحسبنا انها

تثير فينا الحماسة اينما كنا: في مصر او الحجاز او اليمن او لبنان او سوريا او العراق، وتشعرنا بالرباط المقدس الذي يربط اجزاء البلاد العربية. وما فائدة التعريف والتحديد واثارة الجدل في هذه اللفظة بعد ان اتفقنا على انها هذا « الرباط المقدس » ؟

والجواب يتركز في نقطتين: الاولى ان تحديد العروبة يعني ضرب نطاق حولها، او بلغة الرياضيين، رسم دائرة حول عناصرها الاساسية . ومتى فعلنا ذلك وصلنا الى الاهداف التي يجب ان نجعلها نصب اعيننا ، ونعمل افراداً وجماعات ، حكومات وشعوباً، على بلوغها. ومن الخطل ان ندعو الى تأييد« العروبة » وهي فكرة غامضة يتصورها كل امرىء حسب اجتهاده ، من لفظة عاطفية تثير الحماسة.. الى وحدة شاملة لحيواتنا جميعها . وينتج عن ذلك ضرورةً اضطراب المبادىء والاهداف، وفقدان الاتجاه العام والتكتل التام نحو قبلة واحدة، كما نرى ، — لسوء الحظ — في معظم الاحزاب العربية. ان المصلي يحدد اولاً القبلة ثم يتجه بجسمه وقلبه وروحه نحو ربه . وهذه سنة عربية قديمة، بل سنة روحية اقدم ، فلم ننحرف اليوم عنها؟ ألأنها سنة فاسدة ردنا عنها الزمن ، ام لانا ابتلينا بالفوضى ، فلم نعد نحسن ضبط قوانا لنحدد، بكامل وعينا، هدفنا، ثم نندفع نحوه بجزم وعزم؟

والثانية ان هذا التحديد يضبط فهمنا « العروبة » . ومتى

فهمناها جيداً واحطنا بمقوماتهـــا اضحت جزءاً مستساغا من عقليتنا ، وعقيدة راسخة في جهادنا، فيتوارثها الابناء عن الآباء .

ان بعض الاحزاب الناشئة اليوم تكره « العروبة » وبعض العرب يسخرون بها . ولا بد من ان يكون ثمة مبرر لذلك . فهل فعلوا ذلك ، ترى ، بعد ان اداروهـــا في رؤوسهم ظهراً لبطن ، وظهرلهم سخفها وبطلانها ؟ ام انها عندهم فكرة غامضة مضطربة ، تبدو حيناً (غولا) وحينــاً تعصباً دينيــاً ذميماً ، وحيناً عدواناً غاشماً ، وحيناً رباطاً واهيــاً ؛ وهي في جميع هذه الحالات صور منكرة ؟ . لا ادري . يحسن اولا ان نعرضها على الناس على حقيقتها ثم نستطلع رأيهم فيهـــا . فاذا كرهوها وذموها فعلوا ذلك عن تبصر ودراية ، واذا احبوهـا واعتنقوها فعلوا ذلك عن وعي . وعندئذ يعرف بعضنا بعضاً ، ويعرف كل امرىء الى اي المعسكرين ينحـاز ، واي السبيلين يسلك ، ويسير قومنا جميعـاً على هدى . ولا تزر وازرة وزر اخرى .

واذ تبين ان فحص هذه اللفظة ، فحصاً علمياً ، ضروري ، فلننتقل الى لب الموضوع ولنحاول ان نجيب عن السؤال : ما العروبة ؟

* * *

من الطريف ان لفظة « عروبة » لم يستعملها قدامى العرب للدلالة على اي معنى من المعاني الحديثة التي يحاول المحدثون ان يستخلصوها منها. جاء في لسان العرب : «عرب عروبة وعروبية فصح بعد لكنة في لسانه» وليس في سائر المعاجم زيادة . وهذا يدل على انها وصف للكلام فحسب . وهناك لفظة قريبة منها نطقاً هي « العروبة » – بفتح العين – باللام وبلا لام . وهي الاسم القديم ليوم الجمعة . وفي الصحاح : «وكأنه ليس بعربي». وردد ابن الاثير في (النهاية في غريب الحديث) هذا القول . وجاء في قصيدة ابي تمام التي مطلعها: «غدت تستجير الدمع خوف نوى غد » ، هذا البيت :

حططت بها يومَ العَروبة عزّه وكان مقيما بين نَسْر وفرقد

واستعمال ابي تمام اياها من الاغراب الذي شُهر به .

وحاصل القول : ان العُروبة ذات دلالة حديثة نشأت في هذا الزمن .

وما هذه الدلالة الحديثة ؟

الواقع انها تختلف باختلاف الناس . وقد سألت عدداً من الاشخاص عن مفهوم هذه الكلمة فتلقيت اجوبة مختلفة . ولنستعرض هذه الاجوبة بايجاز قبل ان ندلي برأينا .

من الناس من يفهم العروبة انها « الجنس العربي » . ولن اطيل النظر في هذا المفهوم. فقد اسهب العلماء في هذا الموضوع حتى اجمع رأيهم على ان نظرية الجنس اسطورة ليس اكثر. وانه لمن اصعب الصعب ان نحلل دماء الناس لنردها الى عرق او جنس من الاجناس. قال الاستاذ ايفانز برتشارد : « يتكلم الناس من غير العلماء عن الجماعات والطوائف الذين يشتركون في لون معين من الثقافة ويدينون بعقيدة واحدة ويتكلمون لغة واحدة، بأنهم من ابناء سلالة واحدة معينة كما لو كان كل فرد منهم قد اكتملت فيه جميع خواص هذه السلالة ومميزاتها من لون وسمة وما الى ذلك . فحكام المانيا في عصرنا هذا ادعوا مثلاً انهم من السلالة الآرية. ولكن العلماء عندما يتكلمون عن الآرية فانهم يقصدون لغات معينة لشعوب وقبائل مختلفة تشمل اللغات السنسكريتية والارمنية والفارسية واليونانية واللاتينية الخ . كذلك يتكلم عامة الناس عن السلالة اليهودية التي يعني بها العلماء كلّ من اعتنق الدين اليهودي . فاليهود وان كانوا منتشرين في معظم انحاء العالم ، ليس لهم خواص ومميزات طبيعية مشتركة بينهم جميعاً (ليتأمل السياسيون هذا الكلام العلمي) كذلك يخطيء الناس عندما يتكلمون عن الجنس الفرنسي او الجنس الانجليزي .. فهما ، وان كان لكل منهما شعبة ذات ثقافة خاصة ونظام سياسي خاص، خليط من الناس ، بل هما

اشد ما تكون النـــاس اختلاطاً ». الا يصح هذا القول في العرب ؟ . على انا ننظر الى الموضوع من ناحية عملية ونسأل: كم نسبة الاشخاص في هذا المحيط العربي الواسع الذين يستطيعون ان يثبتوا اثباتاً علميـاً انهم من اصول عربية خالصة ؟ والسؤال منصب على النسبـة لا على الاصل . اذ لا ريب في وجـود دم عربي خالص في كثيرين من الافراد والاسر والقبائل، لا سيما الذين في داخل الجزيرة العربية . ولكن ما مقدار النسبة في الشعب العراقي ، والشعب السوري، والشعب المصري، والشعب المغربي؟ وهل نفي اصالة الدم في هذه الشعوب ، او – على الاصح – في شطر من هذه الشعوب ، صغر او كبر ، ينفي عروبتهـــا ؟ استغفر الله ثلاثا . فهذه الشعوبِ التي ضربتها مثلًا، هي من صميم العروبة ، بل هي حاملة لوائها في هذا الوقت ، وفي منزلة القلب منها .

ومن الناس من يفهم العروبة انها « دين » واخصص « الدين الاسلامي » ومعنى ذلك ان المسلمين عرب وغير المسلمين ليسوا عرباً . فهل هذا صحيح ؟ الجواب: كلا. فقد قطنت هذه البلاد قبائل عربية مسيحية قبل الفتح الاسلامي، وتداخل اصحـــاب الديانتين الكبيرتين ، الاسلام والنصرانية ، بعد الفتح، وصهرتهم احداث متعاقبة ، ودخلوا في العروبة افواجـاً افواجا . وهل

يجرؤ احد على اخراج اليازجيين والبستانيين واديب اسحق وفرح انطون وزيدان وجبران والريحاني ونخلة ومطران واضرابهم من العروبة ؟ انه ، ان فعل ، كافر بالعروبة . وقس على ذلك سائر الافراد والاسر المسيحية التي هي جزء مكين في صرح العروبة. ونذهب الى ابعد من ذلك فنقرر ان مسيحيي مصر الذين هم من اصل قبطي — وقد ضربناهم مثلاً لانهم على ما يزعم علماء اللغات من اصل حامي، والعرب من اصل سامي — ركن متين في صرح العروبة ، ولا يقلون في ميزان العروبة شأناً عن المغاربة الذين اسلموا في حين ظل الاقباط على دينهم . واخيراً اذا كان الدين مرادفاً للعروبة فهل مسلمو الباكستان والصين وجزر الملايا وقبائل افريقية ومن شاكلهم عروبيون ؟ لا شك في انهم ليسوا كذلك . وينبغي ان نعترف قبل الفراغ من هذه النقطة انه لا يدور بخلدنا قط ان نوهن الرباط الديني، ولا ان نطرح الاسلام من حساب العروبة، « لان الاسلام كان الدافع الاول والباعث الرئيس الى توحيد العرب واخراجهم من جزيرتهم وانتشارهم في فضاء الله الواسع ليؤدوا رسالتهم نحو العالم كله[11] »

ومن الناس من يفهم العروبة انها وحدة جغرافية وسياسية واقتصادية فحسب. وان صح هذا الفهم وجب ان نخرج من دائرة العروبة جميع العناصر التي هاجرت من اوطانها ، كمهاجري

العرب في الامريكتين وافريقيا والهند واستراليا واوربا الخ . وهذا اجحاف منكر . ويبدو ان اصحاب هذا الفهم يعتبرون «العروبة » مرادفة « للقومية » حسب مفهومها الدولي ، والعروبة في رأينا لما تبلغ هذا الحد . والحكومات العربية لم تخط بعد خطوات «قانونية» او — ان شئت — عملية نحو هذا الهدف . فما زالت جوازات السفر التي تسم كل امرىء بجنسيته الخاصة في العرف الدولي ، والحواجز الكمركية والتشريع ، وانواع الحكومات ، وما زالت هذه وغيرها تثبت ان العروبة شيء، والقومية شيء آخر في عالم « الواقع » . اما عالم الآمال فله حكم آخر . وقد بيّنا سابقاً ان الآمال تتجه نحو التكتل .

ومن الناس من يجعل « العروبة » مرادفه « للعرب » وهو مذهب جميع الكتاب المحدثين الذين توسعوا في فهم لفظة «العرب» واطلقوها على متكلمي العربية الخاضعين لوحدة التاريخ[١٢] . وهذا اقرب شيء الى مفهومنا ، وهو ما درجنا عليه الى اليوم ، وقصدناه في دعوتنا الى « تعريب العرب » ، وان كنا نؤثر ان نفرق بعد اليوم بين اللفظتين ، فنطلق « العرب » على الجنس ، « والعروبة » على العرب وغير العرب ممن وحدتهم اللغة والتاريخ والشعور . وقصدنا من ذلك ازالة الذعر الذي يشعر به بعض الطوائف التي ترد انسابها الى اصول غير عربية؛ وتوضيح الدعوة

الى « العروبة » التي يتنادى اليها الناس ، حسب فهمنا نحن ؛ ووضعها فوق الريب والشبهات .

وما فهمنا نحن للعروبة ؟

* * *

العروبة في رأينا ذات ثلاثة اركان: عروبة اللسان، وعروبة العقل ، وعروبة القلب . واسقاط ركن من هذه الاركان يخل بالعروبة ويفسدها .

اما عروبة اللسان فنقصد بها (العربية الفصيحة) ، عربية الكتاب والقلم ، لا اللهجات المحكية ، وكلما تمكن المرء من العربية الفصيحة ، رسخت عروبته واستمر مريرها . وليست اللهجات ساقطة من حسابنا ولكنا نقوّمها بالحد المشترك فيها . وهذا الحد في نظر التحليل اللغوي كبير ولسنا نستطيع ان نعطية رقماً فنقول هو خمسون او ستون في المئة من المجموع . فهذا امر في غاية العسر وان كان لا يبلغ حد الاستحالة . على انا واثقون، بقدر ما اتاحت لنا الظروف الاطلاع على اللهجات، ان هذا الحد يتجاوز النصف . ومن الجائز ان يتجاوز الثلثين . واذا نحينا الاختلاف الصوتي – الناجم عن نطق خاص بالاصوات والامالة والخطف والضغط والنغم، وهي صفات سريعة الزوال –

تجاوز الحد المشترك بين جميع اللهجات العربية في المشرق والمغرب، ثلاثة ارباع . وليس القصد من تقييد هذه الحقيقة اللغوية ، النكوص عن المبدأ الذي اثبتنـــاه من ان العروبة تعتمد على العربية الفصيحة . ولكنا اردنا الحيطة ممن يحدثه الهوى ان يتخذ من تعدد اللهجات وسيلة للتفرقة. فهي في الواقع مظهر تاريخي، ونقطة بداية لا نهاية ، وملتقى طرق لا ساحة لقاء . ومن هذه اللهجات سننطلق نحو العربية الفصيحة . وقد انطلقنا فعلًا نحوها. ونحن اليوم ادنى اليها منا قبل ربع قرن . فيوم تمحى الامية ويحس العرب ان العقل يجوع كما تجوع المعدة ، ويقبلون على الكتاب اقبالهم على الرغيف ، يومئذ سنلتقي في ساحة العربية الفصيحة الرحبة ، وسنبلغ ذروة العروبة اللسانية . واود ان اطمئن المتشائمين ان هذا اليوم آت عاجلًا او آجلًا ، وان السعي — بسوء نية او حسن نية — لاخفاء هذا اليوم عنا لن يقضي على النتيجة ، ولكنه يبطىء في سيرنا اليها فحسب .

وما عروبة العقل ؟ كانت اللغة في اول نشأتها وسيلة التفاهم لقضاء الحاجات . ولكنها بعد ان قطعت هذا الشوط الطويل منذ استعملها الانسان للتفاهم الى ان اضحت وسيلة للتعبير عن النتاج العقلي والروحي والادبي والحضارات البشرية المتعاقبة — منذ ان قطعت هذا الشوط ، تجاوزت غايتها الاولى الى غايات

كثيرة بعضها يسير وبعضها معقد. فاللغة اليوم هي جماع الآداب والعلوم والنظر الفلسفي والروحي الى الكائنات والتقـاليد والعادات والاخلاق المنبثقة من اعماق الامة، والتاريخ بأفراحه واتراحه ، انتصاره وانكساره، مده وجزره . اللغة هي صور مرئية لتاريخ حافل بالاحداث. وبقدر دنو المرء من هذا التاريخ الشامل واحاطته به يدنو من تحسس كيانه ومن ايقاظ وعيه ومن اغناء روحه وتوسيع تجاربه وارهاف حسه . فالتاريخ هو زاد المرء في سفره ، وعدته في قتاله ، وثقافته في مهنته ، والنور الذي يبصره بطرقه . وهو نقطـة انطلاق الى الامـام ـ لا الى الوراء ـ بثبات واطمئنان . والفرق بين واعي التاريخ وجاهله كالفرق بين الطبيب الواقف على علمه ومـا يشمله من تجارب قديمة وحديثة ، والمطبب الجاهل .

ان حوادث التـاريخ متصلة بعضهـا ببعض ، والثورات والانقلابات التى تبدو في ظاهرها انفلاتاً من مجرى الحوادث، لها اصول بعيدة في تربة الامة . ولا يمكن بحال ان نتصورهـا مبتورة الاصول . هـذا هو الفهم الصحيـح للتاريخ . والذين يقودون الامم هم اعمق الناس فهماً له وتأثراً به . فالمشرع الذي يسن القوانين ـ مهما كانت متقدمة ـ لا يمكن ان يغفل التاريخ بشقيه القديم والحديث ، او على الاصح ، ان يضع فـاصلاً بين

الماضي والمستقبل. لان الواقع ان التاريخ اما امس واما غد. اما اليوم فلحظـــات خاطفة . وكذلك الشاعر - مهما بالغ في الانعتاق من القديم - لا يمكن ان يسبق نفسه. فهو ابداً نفسه المنبثقة عن المجموع المتأثر بالتاريخ . وما يقوله منبعث عن هذه الحفنة من التربة العامة . وكذلك السياسي لا يمكن ان يرسم الخطط السديدة لسير الجماعة ما لم يلم بالعراقيل التي اخرتهـــا في الماضي وبالشباك التي نصبت لها وبالممكنات التي تختزنها .

فعروبة العقل - اذن - هي العروبة الواعية ذاتها وجماعتها بما لهم وما عليهم . هي الممتلئة احساساً بالاحداث التاريخية الشاملة لحيوات الامة السيـــاسية والادبية والاخلاقيـــة والاجتماعية والعقلية .

وربما كان عدد عروبيي العقل قليلًا . وهذا معناه سطحية العروبة لا نفيهـــا . وبقدر حظ المرء من هذه العروبة وبقدر اسهامه في انمائها يكون اعرق في العروبة . فالطبقات المثقفة - هذا النوع من الثقـافة - هي صاحبة العروبة العقلية . وسائر الشعب مادة خام فيه رواسب من العروبة وفيه احاسيس غامضة هي التي تنفجر بين حين وآخر دون ضابط ودون هدى . ومن هنا جاء اختلال الرأي العام في عالم العروبة، وجاء نفوذ الاجنبي وتضليله وفتنه حتى لا يعرف الشعب الساذج في اية جهة يسير ،

وأية هيئة يؤازر ولاي زعيم ينقاد .

ولنضرب مثلاً حياً منتزعاً من تاريخنا الحديث لما ينجم عن فقدان هذا الركن وعن وجوده . وقد شاء الله ان يجتمع هذا المثل بشقيه في شخصية علم من اعلام الفكر والادب المحدثين هو امين الريحاني . ولنترك له الحديث بأسلوبه الرشيق : «هجرت وطني وفي صدري الخوف ممن اتكلم لغتهم والبغض ممن في عروقي شيء من دمهم . والبغض والخوف هما توأما الجهل . وقد عرفني امرسن الى كارليل . وكان كارليل اول من عاد بي من وراء البحـــار الى العرب . اجل ، وقد يُستغرب قولي اني عرفت، بواسطة الكاتب الانجليزي الكبير ، سيد العرب الاكبر محمداً . فأحسست لاول مرة بشيء من الحب للعرب ، وصرت اميل الى الاستزادة من اخبارهم

«ثم في غزواتي للكتب الانجليزية غنمت كتابـــاً استوقفني ظاهره الفخم ، وراقتني الصور فيه . ومـا كان العنوان لينبئني بشيء اكره او احب . قرأت كتاب الهمبرا لارفنج فأدركت ان المؤلف يريد بالعنوان «الحمراء»، وعرفت ان الحمراء لؤلؤة تاج العرب في الاندلس.. بعد ان قرأت كتاب الحمراء مازج عقليتي الاميركية الافرنسية الانكليزية شيء من الخيال الشرقي، فصرت احلم بذاك المجد الماضي احلاماً تمثلني حياً فيه بل تمثله حياً امامي.

«عدت الى بلادي كئيباً يحمل كتاباً ، ويرغب في ان يكون الكتاب مئة كتاب وكتـــاب . وكنت لا اعرف من لغتي وآدابها غير اليسير اليسير ، فتغلغلت في سراديبها دون ان ارثي لحـالي . وبينما انا اتخبط في دياجير اللغة عثرت على شعر انساني الكسائي وسيبويه وكل من علم حرفـــاً في البصرة والكوفة . جمعني الله سبحانه وتعالى بأبي العلاء المعري بعد ان هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي الى الرسول العربي ، قرأت اللزوميـات معجباً بهـا ، ثم قرأتها مترنمـاً ، ورحت افاخر بأني من الامة التي نبـغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور ، الحكيم.. »[١٣]

ولست بحاجة الى تعليق على هذه القطعة البليغة . ولكني اود ان استرعي النظر الى امرين . الاول كيف استطـــاع التاريخ – الشامل للادب – ان يسل من صدر الريحاني بغض العرب وان يضع بديلاً منه الفخر بأنه منهم . والثـــاني مبلغ الغنيمة التي غنمها الفكر العربي الحديث بمؤلفاته . وحين يُسجل التاريخ سيعرف الناس ان (كتاب ملوك العرب) قمة في تاريخ العرب الاحياء لا تعادلها قمة، وان امين الريحاني كافح في سبيل عروبته العقلية كفاحاً مريرا .

وما عروبة القلب ؟

ان عروبة اللسان والعقل لا تكفي . فقد يحذق اجنبي لغتنا

وتاريخنا مثلنا او احسن منا ، ومع ذلك لا ينتمي الى العروبة. ان توافر هذين الركنين يدنيه منا ، يربطنا به برباطين قويين ، ولكنه لا يجعله واحداً منا ، له ما لنا وعليه ما علينا . وينبغي ان اضيف ان هذين الركنين يباعدانه عنـــا حين يتوسل بهما ليكون علينا لا لنا. وما اكثر ما يقع ذلك لا في بلادنا فحسب، بل في سائر بلاد العالم .

فعروبي القلب هو الذي يؤمن ايمانـــا راسخـاً بحق امته بالحياة الحرة من الاغلال . وهذا الايمان من حق كل انسان في هذا الوجود. ولكنه للعروبي حق عام وحق خاص استخلصه من تراثه القديم . وهو الذي يؤمن ان امته ساهمت مساهمة اصيلة في بناء الحضارة العـالمية وانها مزمعة المساهمة من جديد . وهذا الايمـان لا يمكن ان يكون اصيلاً في نفسه الا بعد ان يلم بالعناصر الخالدة من التراث القديم . والا فهو شعور مشترك بين جميع الناس. وهو الذي يؤمن انه جزء من المجموع بما قدمه من حسنات وما اقترفه من سيئات ، يتقدم الى حمل اعبائه مثلما يتقدم الى التباهي بأمجاده. واخيراً هو الذي يؤمن ايماناً صادقاً بوحدة اللغة والفكر ويعمل على توسيعهـا وتغويرهـا حتى تصبح اساساً متيناً لاية علاقة مادية يمكن ان تبنى عليها في المستقبل . وجماع هذه الصفات حب العروبة والعمل على رفع شأنها وتسديد

خطاها بحزم وعزم لا يكلان .

هذا هو مفهوم العروبة في رأينا . واركانها الثلاثة متساوية القيمة . وسقوط ركن يوهنها . وقد رأينا ان وجود الركنين الاولين عند الاجنبي لا يدخله في حظيرة العروبة . ووجود الركن الاول وحده او وجود غيره معه على ضعف في المواطن « العربي » — القاطن بلاد العربية — يضعفها . وبتوافر الاركان الثلاثة يكمل صرحها .

ورب سائل يقول : ما تقول في السوري او المصري الذي يتكلم العربية ويقرؤها فحسب ، أهو عروبي في نظرك ام لا ؟ والجواب انه سوري او مصري . اما صفة العروبة فيه فضعيفة، وهو بحاجة الى تعريب . وان قيل : والعربي الاصيل المقيم في الجزيرة العربية، اعروبي هو ان فقد احد الاركان ؟ والجواب: هو عربي وجزري ولكن عروبته رقيقة تحتاج الى تغوير .

والخلاصة : ان العروبة عروبة اللسان والعقل والقلب. وهي اصطلاح حديث . وهي مغايرة للفظة (عربي) بمعناها العلمي . وقد يكون العربي عروبياً ولا يلزم العكس. فشوقي الكردي الاصل المصري الجنسية عروبي بل امير من امراء العروبيين . وامين الريحاني الماروني الاصل اللبناني الجنسية عروبي بل سيد من سادات العروبيين . وعلى هذا الفهم درج القدامى : فابو

نواس وابو تمام وابن الرومي، وان اختلفت اصولهم حسبما يروي التاريخ ، عروبيون ، بل من سادات العروبيين ورؤوسهم ، بقدر ما كان عمر بن ابي ربيعة وجرير والفرزدق والاخطل عروبيين ، وان كانوا عرباً حسبما يروي التاريخ ، لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء . كلهم في العروبة سواء .

وهذا هو فهمنا اليوم للمصريين والنجديين والسوريين واللبنانيين والعراقيين وسواهم. انهم جميعاً عروبيون وان اختلفت اصولهم ومذاهبهم. واقربهم الى العروبة لا عربيهم ولا مسلمهم، بل احذقهم للغة العربية واعمقهم عروبة عقل واصدقهم عروبة قلب. ورب عربي جاهل في البادية ابعد عن العروبة من مهاجر لبناني في امريكا ، لان الاول لم تبق من آثار العروبة فيه الا لهجته ، وتوافرت في الثاني عروبة اللسان وعروبة العقل وعروبة القلب.

هذا هو فهمنا الحديث للعروبة . وهو ذو ثلاث صفات : الاولى انه ذو تحديد دقيق لهذه اللفظة التي شاعت اخيراً ، ولا يلتبس بمختلف المصطلحات كالجنسية والقومية والوطنية . ومن المؤسف اننا نشهد اليوم تطاحناً بين ابناء البلاد الواحدة مرده في الدرجة الاولى الى اختلاف الناس في فهم المصطلحات. ولو غصنا في اعماقهم لوجدنا وحدة المعنى ووحدة الدائرة الواسعة التي يجولون ويصولون في داخلها . وتحديدنا الحديث

يضع حداً للخصومات اللفظية ويوجهنا جميعاً نحو هدف واحد ، ما لم تكن هناك شعوبية متسترة بالاصباغ ! والثانية ان هذا المفهوم مع دقته واسع الافق يشمل جميع اصحاب المذاهب السياسية والاقتصادية والاجتماعية الذين يقصدون خدمة بلادهم حسب اجتهادهم وميولهم مخلصين لها الخدمة. فلا يوزع الاخلاص والوطنية بصكوك كما توزع الاراضي او كما توزع حصص الناس في الجنة . وهو يترك ميدان الاجتهاد واسعاً لبروز المواهب الذاتية من جهة والاستفادة من التراث الانساني العام في اية ناحية من النواحي من جهة اخرى . والثالثة انه يجعل منا خطاً واحداً نعدو منه في السباق الفردي والجماعي نحو الهدف كخط المتسابقين في حلبة السباق . وهذا الهدف هو عروبة اللسان ، وعروبة العقل ، وعروبة القلب .

* * *

بقيت مسألة خطيرة تنشأ عن السؤال التالي : هل للعروبة معنى مادي ؟ ألها هدف مادي ، ام هي رابطة عقلية – قلبية فحسب ؟

والجواب عن هذا السؤال يخرجنا عن موضوعنا. واولى منا بالاجابة عنه رجال الاقتصاد والسياسة . فهم الذين يحسنون الاجابة. على اني لا اود ان أتهم بالفرار من الميدان. وانا كسائر

« العروبيين » لي حق المشاركة في الرأي في مستقبلنا المادي . ولذا سأدلي برأيي صراحة مع ايجاز يقتضيه المقام .

اولاً ، ان «العروبة» بعد ان تتمكن منا ونتمكن منها نقطة انطلاق الى مستقبلنا المادي . والعقيدة « العروبية » لا يمكن ان تنتهي عند هذه العلاقات المعنوية ، بل لا بد لها من ان تتجه بنا حتماً الى اتجاه مادي . وليس من شك عندي في ان العروبة ستيسر الى ابعد حد في صلاتنا المادية – سياسية كانت ام اقتصادية – ، وستدفعها الى افق واحد مهما كان واسعاً . وشعورنا بالاخوة « العروبية » كلما قوي يزيدنا قرباً الى اخواننا العروبيين حيثما كانوا ، وربما دفعنا الى تغيير الخطوط الحمراء على الخريطة في نهاية الامر . ولكني – مع ذلك – مؤمن ايماناً عميقاً بأن نطاق عملنا في الوقت الحاضر هو العروبة نفسها ، هو توسيع حدودها المعنوية وتغويرها في نفوس الافراد والجماعات على النحو الذي سأذكر في بحث لاحق « تعريب العرب » . وانه لمن الصعب في هذه المرحلة – ولما نستكمل عروبتنا المعنوية – ان نتنبأ بمستقبل عروبتنا المادية . ومن الخطأ ان ننصرف عن هذا الهدف البين لنتجادل في مستقبل ما يزال في عالم الغيب. نحن بحاجة في هذا الدور الى كل رأس والى كل يد لتثبيت « عروبتنا » وتوسيعها وتغويرها حتى تصبح كالصخر ،

ومن ثم نترك للاجيال المقبلة ان تبني على الصخر البناء الذي تريد . نحن باشد الحاجة الى تجميع القوى وتوحيدها ، وعروبتنا نفسها في خطر ما دمنا مختلفين متناحرين كما هو حالنا اليوم . واخشى ان استمررنا في التناحر ان نفقد طرف الحبل الذي نمسك به الآن للاسترشاد الى هدفنا. ان العروبة رأسمال عظيم. هي كنز ثمين . واذا احسنا التصرف بها اصبحنا من اعظم الامم ثقافة وروحانية ومادة ، وساهمنا في بناء الحضارة العالمية مساهمة عظيمة .

وان قيل: ولكن علاقاتنا المادية –السياسية والاقتصادية– لا يمكن تنحيتها في هذا الظرف الخطير . فما الخطوط الرئيسة التي يصح ان نرسمها ؟ أجبت : ارانا نسير في ثلاث مراحل : الاولى، مرحلة التحالف بين دول العروبة ، اعني تمكين الروابط المادية بمعاهدات تقصد الى ان تكون كل دولة قوية سياسيا واقتصادياً ، محررة من القيود والاغلال ، ومطمئنة الى سلامة مصيرها في وجه العدوان الخارجي . وتقصد ثانياً الى تبادل المنافع المادية على قاعدة « الاقربون اولى بالمعروف » .

والمرحلة الثانية توحيد ثلاثي : مصري في افريقيا ، سعودي في الجزيرة العربية ، سوري في بلاد الشرق العروبي . اعني ان تتزعم مصر حركات العروبة المادية في افريقيا حتى يصبح هذا

الركن متمكناً من عروبته ، وان تتزعم سوريا بمفهومها الواسع حركات العروبة في المنطقة الثانية ، وان تتزعم السعودية نهضة الدول والامارات العربية في الجزيرة. وامام كل قطر من هذه الاقطار الثلاثة مجال واسع للعمل المنتج . وعندئذ تتجمع بلادنا المتفرقة في ثلاث وحدات اساسية قوية فعالة .

وفي المرحلة الثالثة ترتبط هذه الوحدات الثلاث بما تريد من روابط وفق ما تقتضيه احوالها الداخلية وظروف العالم الخارجية. وعندئذ تكون « العروبة » التي تحدثنا عنها طويلاً قد بلغت الغاية في القوة والرسوخ ، وننشد قول ابي تمام :

في الشام اهلي وبغداد الهوى وانا
بالرقمتين وبالفسطاط اخواني

وماذا بعد ذلك ؟ وهنا لا نحاول ان نرجم بالغيب . ولكننا في « عروبتنا » الحاضرة امام اهداف واضحة بينه. فلنعمل على تحقيقها بقوة وايمان وتعاون تام . وكيف ؟ هذا ما أحاول ان اجيب عنه في فصل آخر .

الفصل الثالث

عروبة اللسان

تبين مما ذكرناه في الفصل السابق ان اللغة بمعناها الواسع هي الركن الاهم في بناء القومية .

ونود في هذا الفصل ان نعرض النزاع الذي يثار بين حين وآخر حول اللغة الفصيحة واللهجات العامية .

فمنذ نحو ربع قرن تقريباً اصدر الاب مارون غصن كتيباً عنوانه « في متلو هلكتاب ؟ » انتصر فيه للعامية ودعـا الى استبدالها بالعربية الفصيحة .

وتكررت هذه الدعوة في مناسبات كثيرة في مصر ولبنان خاصة . قال السيد سعيد عقل في مقال نشر في جريدة «النهار»: «ونواجه معركة اللغة فنخوضها غير هيابين. ان ناموس الافصاح

يقضي ابداً بان يحل لسان النطق محل لسان الكتاب . ولسان الكتاب هنا هو هذا الذي حنا عليه لبنان وابلغه اشده ، ولقن العرب كيف اطلاع التحفة فيه ، ورصعه هو بجواهر لا تموت . ومع هذا فلغة الحياة والحرف اللاتيني ـ اداة تدوينها العلمية الاحدث ـ انما هما اللذان يقاتل لهما اللبناني منذ قرن ، قبل ان راحت مصر تنتج مسرحيات واشرطة بلغة الحياة ، وقبل ان قال السيد (عبد العزيز فهمي) بحرف لاتيني » .

واختمرت فكرة (العامية) في رأس الشاعر سعيد عقل حتى كتب بها مقدمة في فلسفة الجمال الفني ، صدر بها ديوان (جلنار)[١٥] للشاعر الزجلي السيد ميشال طراد. ونضع نموذجاً من هذه المقدمة للقراء : « اول ما بيجابهك الجمال بإنو بيغيرك صوب الزيادي ، وهو عميلزك .

« نشوء كل معرفة فيك بترافقو لزّي . بس اللزّي البترافق المعرفة البيعملها الجمال بتفرق عن غيرها بإنو فيها شيء من التخدير ، من الحلم ، من الهز كأنو الكون الانت فيه مرجوحا .

«وان تعمقنا أكثر منشوف روح الجمال حركي صوب التوحُّد ، أجزاء عمتنلم بكل ، طيشرا عمتصير نظام . وهَ النظام متل كإنو بساط مع انو مركّب من الف تنويعا وتداخل . شعور غريب ، شعور بانو التعقيد زاتو صار عميرحرح..[١٦] »

ونعلق على هذه المقدمة بما يلي : —

اولاً : انها كتبت بلغة العوام مع ان موضوعها لا يدركه الا خاص الخواص . وبذلك حرم العوام والخواص من الفائدة المرجوة ، لأن الاولين لا يستطيعون ان يدركوا مرامي الكاتب ، والآخرين يعانون مشقة كبيرة في فهم العبارات العامية واستساغتها . ولو ان الموضوع عامي ، او ان التعبير مألوف ، لاختلف الحكم .

ثانياً : لقد قرأت المقدمة مراراً حرصاً على الافادة منها ، وقرأتها مع اصدقاء لبنانيين ، فوجدنا الطابع (زحلاوياً) لا لبنانياً فحسب .

ثالثاً : ان الكاتب شاعر من اكثر الشعراء المعاصرين ابداعاً وتفنناً . وشعره بالعربية الفصيحة جميل حقاً . وقد ضن بشعره ان يصاغ بالعامية . ونرى آراءه الفنية جميلة جمال شعره . ولو أنها صيغت باللغة التي صاغ بها شعره لظفر بالاعجاب المزدوج ، ولحقق ما يريد على احسن وجه .

رابعاً : ترى أيحاول شاعر انكليزي من طبقة سعيد عقل في أدبه ان يكتب بالعامية ؟ أيحـــاول ذلك شاعر فرنسي او الماني ؟ ان الذي نعرفه ان الادباء الممتازين في كل امة يكتبون

ليرفعوا العوام الى مرتبة الخواص لا لينزلوا الخواص الى مرتبة العوام . ومن الخطأ التصور ان لا عاميات الا في العربية .

واخيراً ان مقدمة سعيدعقل خليقة بان تصاغ لا بلغة فصيحة فحسب ، بل بلغة غاية في الفصاحة والبيان . وحرام ان تكسى الحسناء بالاطمار .

* * *

ولهذه الدعوة اساسان : أساس تاريخي وأساس واقعي .

فمن الناحية التاريخية ذهب عدد من علماء المشرقيات الى ان العربية الفصحى هي لغة القرآن والشعر ، ولم تكن لغة محكية في وقت من الاوقات ولا في مكان من الامكنة . فهل هذا صحيح ؟

اولاً : يقول عدد من علماء اللغة الـ Linguistics ان اللغة مرت في ثلاثة ادوار ، دور افرادي ، ودور إعرابي ، ودور تحليلي ، والعربية الفصحى في الدور الاعرابي نظير اللغتين الاغريقية واللاتينية . والعربية المحكية في الدور التحليلي نظير اللغة الانكليزية. وحين تمر اللغة من دور الى آخر لا تخلع جميع مظاهر الدور القديم وتلبس جميع مظاهر الدور الجديد ، بل تجتاز مراحل كثيرة متدرجة تتشابك فيها مظاهر الدورين ،

وتعترض اللغة في اثناء هذه المراحل عوامل متنوعة تسرع او تبطىء في انتقالها من دور الى آخر . ولذلك لا تقاس جميع اللغات بمقياس واحد . واذن فليس ثمت مبرر لاعتبار العربية الفصحى متفردة بهذا الدور الاعرابي دون سائر اللغات ، ولا لاعتبار هذا الدور ظاهرة ادبية خالصة لاتمت الى الكلام بصلة.

ثانياً : للتاريخ القديم رأي في هذا الموضوع يؤكد ان العربية الفصحى كانت محكية .

أ – روى عمارة اليمني- من رجال القرن السادس الهجري - في كتابه تاريخ اليمن [١٧] ما يلي : « ولقد اذكر اني دخلت زبيد في سنة ثلاثين وخمسمئة اطلب الفقه دون العشرين . فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن في شيء من الكلام. فأقسم الفقيه نصرالله بن سالم الحضرمي بالله تعالى لقد قرأ هذا الصبي في النحو قراءة كثيرة .

« ولما زارني والدي وسبعة من اخوتي الى زبيد احضرت الفقهاء فتحدثوا معهم . فلا والله ما لحن احد منهم لحنة واحدة نقموها عليه . فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه - اي الفقيه - صرت اذا لقيته يقول: مرحباً بمن حنثت في يميني من اجله..» .

ويروى عن المجد الفيروزابادي صاحب القاموس المحيط المتوفى سنة ٨١٧ ه ، انه اراد في اثناء مقامه في الحجاز ان

يعرف معنى لفظتين وردتا في القرآن: الاولى متاع، والثانية قسورة ، فذهب الى قبيلة بني فهيم في منطقة السراة الواقعة بين الطائف وعسير ، وبينما هو يطوف سمع فتاة تقول: اين متاعي؟ فسأل عن الكلمة فاذا هي شيء يتعلق بحيض المرأة . ثم بحث عن قسورة فاذا معناه الاسد وهي شائعة عندهم . وقال لي المرحوم فؤاد حمزة معقباً على هذه الرواية : وهذه المنطقه يتكلم اهلها العربية الفصحى الى اليوم. ومن جملة القبائل التي تنزلها بنو ثقيف وقريش وبنو حارث وبنو زهران . وسألت فؤاد حمزة : وهل هذه القبائل محافظة على الاعراب؟ قال نعم ، ولكنه ليس تاماً ، وانما هو اقرب شيء الى الفصحى . هم ينزلون منطقة جبلية . قلت : ومن في الساحل ؟ قال : خالطت لغتهم عجمة بسبب اتصالهم بافريقيا وخاصة الحبشة .

واذن فالالفاظ القرآنية التي تعد من افصح الفصيح كانت دائرة على السنة بعض القبائل ، وهي ما تزال كذلك الى اليوم.

ح ــ وفي كتب الادب روايات كثيرة تثبت ان الاعراب كان سليقة عند بعض القبائل ، نثبت بعضها .

(١) قال رجل لاعرابي : كيف اهلِك ـ يريد اهلُك . فأجاب الاعرابي : صلباً ، ظاناً انه سأله عن هلكته .

(٢) اخذ عبد الملك بن مروان رجلاً كان يرى رأي الخوارج

فقال له : الست القائل :

ومنا سويد والبطين وقعنب
ومنـــا امير المؤمنين شعيب

فقال : انما قلت : ومنا اميرَ المؤمنين ، شبيب. بالنصب ، اي يا امير المؤمنين ، فأمر عبد الملك بتخليته .

(٣) سمع اعرابي مؤذناً يقول : اشهد ان محمداً رسول الله – بنصب رسول ، فقال : ويحك ! يفعل ماذا ؟

(٤) دخل اعرابي السوق فسمعهم يلحنون. فقال : سبحان الله ! يلحنون ويربحون ، ونحن لا نلحن ولا نربح !

(٥) قـال سلمة بن عبد الملك : اللحن في الكلام اقبح من الجدري في الوجه. وقال عبد الملك: اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب النفيس[١٨].

ولهذه الروايات اشباه في كتب الادب القديمة .

ثالثـــاً : والمؤرخون المحدثون الذي جابوا الجزيرة العربية يدعمون هذا الرأي . قال المرحوم فؤاد حمزة في كتابه قلب جزيرة العرب[١٩] : «.. ولكن افصح اللهجات واقربهـــا الى الفصحى فيما نعتقد هي اللهجـات اليمانية الواقعة مـــا بين جنوبي الحجاز وشمالي اليمن. وكثيراً ما سمعنا اهل هذه البلاد يلفظون

الكلمات من مخارجها الصحيحة ويتكلمون بما هو اقرب الى الفصيح من سواه. وبعض البداة من اهل هذه المنطقة يخرجون جملاً يظن منها الانسان انهم تمرنوا في المدارس على اخراجها على ذلك النحو بينما ان الحقيقة هي بخلاف ذلك ، لانهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة، فيجيء كلامهم فصيحاً معرباً لا غبار عليه. ويستعملون الفاظاً نظنها في الاقطار العربية المتمدنة مهملة متروكة ولكنهم هم يستعملونها على البداهة.. »

* * *

اما الاساس الواقعي فان انصار العامية يدعمون دعوتهم بالحجج الآتية :

اولاً : كل لغة على وجه الارض ماشية، ضرورة، الى الفناء مهما بلغت من المجد والكمال .

ثانياً : الفصحى لا تؤثر في الآذان والقلوب ذلك التاثير اللطيف الساحر الذين تؤثره فيهم لغة امهاتهم[٢٠]

رابعاً : درس الأسس العربية يوصلهم الى الكتاب فقط دون الشعب .

خامسا : الامثال العامية لا تكتب بالفصحى ، وكذلك «الحداويت» والادب الشعبي عامة .

سادساً : العاميات لغات حية نامية تستمد عناصرها من الحياة واللغات الاجنبية . ثم ان القواميس الانكليزية مثلًا تتجدد لكثرة ما يدخلها من كلمات وما يصيبها من تطور ، ونحن نرجع الى قواميس تعود الى مئات السنوات .

سابعاً : علينا ان نعلم الفلاحين بلغة يفهمونها .

ثامناً : الفصحى صالحة لاذاعة موضوعات تاريخية وفلسفية وفنية ، والعامية لاحاديث تتعلق بالمجتمع والسياسة .

تاسعاً : الفصحى متحجرة وغير قابلة للنمو والتطور ولا تسد حاجة الزمن[٢١]

عاشراً : مصير العامية الاستقلال عن الفصحى كما حدث للفرنسية والاسبانية والبرتغالية التي استقلت عن اللاتينية . وبمعنى آخر فان الدور التحليلي دور طبيعي لا مفر منه .

ويرد انصار اللغة الفصيحة على الحجج السابقة بما يلي :

اولاً : ليس هناك لغة عامية واحدة بل عاميات عراقية وسورية ولبنانية ومصرية الخ.. وهذه تشتمل على لهجات محلية كثيرة . وهل هناك حاجة الى استعمال عدة لهجات بدلاً من لغة واحدة مشتركة بين جميع الناطقين بالعربية ؟

ثانياً : مقابلة العامية بالفرنسية من حيث صلتها باللاتينية

صحيح. ولكن استقلال الفرنسية حدث بعد ان تصدعت وحدة العالم اللاتيني ، وقبل هذا التصدع ما كان لفروع اللاتينية ان تستقل وتصبح لغات ادبية .

ثالثاً : وحدة بلاد العربية الروحية ما تزال سليمة. والفصحى ما تزال اعظم رابط ثقافي وتراث مشترك لجميع الشعوب التي تتكلم العربية .

رابعاً : البعث القومي سار جنباً لجنب مع حركة الاحياء الفكري . واسس النهضة العربية هي في الدرجة الاولى ثقافية وادبية . وهذه اللهجات متصلة الى درجة تمنع اي احتمال لان تصبح اية لهجة عامية لغة ادبية . وزيادة عدد المدارس واطراد انخفاض عدد الاميين ، ودخول المذياع الى معظم البيوت ، كل هذه تدعو الى توحيد اللهجات ودعم الوحدة الفكرية في العالم العربي .

خامساً : الرجل العامي يفهم العربية الفصيحة ويفضلها على غيرها . وهو يسمعها على لسان الامام في الجامع ، والزعيم السياسي في الاندية ، والمذيع ، والمعلم الخ..

سادساً : القاسم المشترك الاعظم لجميع العاميات هي اللغة العربية الادبية ، لغة الكتاب والجريدة ، لا الفصحى القديمة .

وهي لغة حية قوية قادرة على النمو والتطور، لأنها تستفيد من مقدرة اللغة الداخلية لاصطناع الفاظ جديدة وامتصاص الفاظ اجنبية لا نظير لها في العربية . وهي اللغة المشتركة الموحدة للعالم العربي . وهذه اللغة هي التي ستعم البلاد العربية[٢٢] .

ونبدي رأينا نحن فيما يلي :

اولاً : هل العاميات اسهل من العربية الفصيحة ؟

(أ) اذا دونا العاميات فنحن مضطرون الى البحث عن حروف جديدة لتؤدي الاصوات المختلفة والامالات والنغم المعروف بالـ Intonation . مثال ذلك صوت القاف = ق، أ ، ك، g ، ج . فهذا صوت واحد يجب ان يكتب بخمس حروف . وقس على ذلك سائر الاصوات . وانا واثق ان هذه الحروف ستزيد عن مئة ..

(ب) ومن جهة الصرف والنحو فان مجموع القواعد لهذه اللهجات جميعاً يزيد كثيراً عما في اللغة الفصيحة. وهذا يعرفه من قرأ نحو بعض اللهجات .

(ج) ومن ناحية المفردات والتراكيب سنضطر الى استعمال عدد اكبر مما هو موجود في اللغة الفصيحة الموحدة . صحيح ان في الفصحى كلمات كثيرة جداً لمسمى واحد ، ولكن اللغة

الفصيحة تعالج هذه الكثرة بطريق انتخاب الاصلح . ومن جهة ثانية فان تعدد اللهجات كان من اسباب هذا الغنى الظاهري ، والعودة الى اللهجات عودة اليه . واذن فالادعاء بان العاميات اسهل لا اساس له من الصحة من الناحية الفنية المحض .

ثانياً : بحث علماء اللغة الغربيون موضوع المفاضلة بين اللغات. وحسب القواعد التي اصطلحوا عليها نجد اللغة الفصيحة افضل . فهي اولاً ادق ، وثانياً اكثر وضوحاً في التعبير ، وثالثاً اغنى مادة ، ورابعاً اجمل في النطق . وقد مرّ على العربية الفصيحة قرون وهي تصَفّى حتى بلغت هذا الدور . امن المعقول ان نرتقي الآن الى اسفل ، كما قال ابو العلاء المعري :

حَسُنَت حالتي الى الخلف حتى
صرت امشي الى الورا زقفونة !

ثالثاً : ليست اللغة اصواتاً . هي ثقافة وفن وادب . فهل تقابل العاميات بالفصيحة من هذه النواحي ؟ انها في غاية الفقر . والادب العامي لا يقاس بوجه من الوجوه بأدب العربية الفصيحة . لقد صب العرب في خلال الاربعة عشر قرناً الماضية آراءهم وتجاربهم في هذه اللغة . والادب العربي القديم بلغ دور الكلاسيكية عندما كانت الامة العربية في ذروة نضجها السياسي والثقافي والاجتماعي . واهمال اللغة الفصيحة هو اهمال لذلك

التراث الادبي الكلاسيكي الذي لا نعرف متى يعود في المستقبل الى ذروة كتلك الذروة ، ومتى تتهيأ الظروف ليتولد نظيره في تاريخ الامة العربية . قال هنري بيرس : يجب علينا ان نلتمس سبباً آخر لحمل نصارى الاسبان واليهود على دراسة اللغة العربية وتفضيلها على غيرها لا يمت الى المصلحة بصلة ، وهو ان اللغة العربية في القرن الخامس تظهر للشعوب القاطنة بالاندلس اللغة الوحيدة التي تشفي غلة الشاعر او الفيلسوف بثروتها ومرونتها. نعم، اللغة الوحيدة التي تقدر باتساع نطاق مفرداتها وتفنن تراكيبها النحوية وجزالة الفاظها من اصيلة ودخيلة على ان تعبر عن ادق العواطف واعلى الافكار . وذلك ان لغة العرب ولغة قريش والقبائل العريقة في العروبة ، قد بلغت في القرن الخامس الى كمال لم تتجاوزه فيما بعد[٢٣] لا شك في ان الادب العربي الحديث في بدايه سيره الى ذروة لا ندري متى تتحقق. ومن الحمق التخلي عنه وهو في دور البداية . ومن الخير ان نتلمس الوسائل لدفعه في طريق النمو والارتقاء . واحدى الوسائل دفع الامة العربية نفسها في سبيل النهوض والرقي الشامل، وفي سبيل تعزيز العناصر العقلية والفنية في حياتها لتعادل الاغراق في العناصر الادبية اللفظية التي تقع فيها الآن .

رابعاً : هل العربية الفصيحة متحجرة ؟ انها لغة المفكرين

والمثقفين . وهي تمتص من اللغات الاجنبية ما تحتاج اليه . وان لم تدخلهـــا الفاظ فنية فـالسبب الحقيقي لذلك ان العلوم الفنية ـ والمعامل والمختبرات ـ لم تشع بعد في البلاد العربية . وحين تصبح الامة ذات مشاركة اصيلة في العلوم الغربية فسيوجد فيها مصطلح هذه العلوم ضرورة ، كما حدث في العصر العباسي. ومن الخطأ ان تتصور وجود اللغة قبل الفكر .

خامساً : يقولون : يجب ان نخاطب الشعب بلغته . وهذا قول حسن . ولكن ان دونت العاميات اصبح من الضروري ان يتعلمها الناس. وبدلاً من ان يتعلموا لغة سيضطرون الى تعلم عدد من اللغات .

سادساً : ويقولون : ان في اللهجات العامية ادباً كالامثال والازجال والقصص . وهذا صحيح . فما الذي يمنع حفظ هذا التراث الشعبي ، قل او كثر ؟ وحفظه يكون بتدوين جزء كبير منه بالعربية الفصيحة ، وما يتعذر تدوينه بها يدون بلهجته ويحفظ لمن يرغب في الاطلاع عليه

سابعا : وماذا نخسر ان كتبنا بالعاميات ؟

(أ) بدلاً من ان يقرأ الكتاب الواحد الف قارىء سيقرؤه مئة ان لم نقل عشرة، ونحن نشكو قلة القراء في هذه اللغة الموحدة التي

يصطنعها كتاب العالم العربي قاطبة، فماذا يكون الحال لو كتب كاتب باللهجة اللبنانية التي لا يتكلمها اكثر من مليون ونصف مليون نسمة ؟

(ب) سنفقد تراثنا الادبي والثقافي الذي انحدر الينـــا منذ مئات السنوات ، وسنفقد العناصر التي دخلته في اثناء احتكاكه بالحضارات الاغريقية والفـارسية والهندية والمصرية والاوربية . اليس الافضـل ان نضيف اليه بدلاً من ان نجرده من اقوى عناصره ؟

(ج) ستضعف وحدتنا القومية التي بدأت تتبلور منذ انفصالنا عن الحكم التركي العثماني . قال ج. فالنتينو: « ان الاختلاف اللغوي شر ، والوحدة اللغوية خير عظيم . واني في حالة العرب خاصة لافهم كل الفهم وارى من الحق ان يشعر العرب المتباعدة اقطـارهم بحـاجتهم الى لغة واحدة هي رمز وحدتهم الروحية ، وان هذه اللغة الواحدة لا يمكن ان تكون سوى الفصحى»[٢٤]

ومقابل هذه الخسارة المتعددة النواحي لا نربح شيئاً البتة . ويكون مثلنا كما قال الشاعر :

سبكناه ونحسبه لجيناً فابدى الكير عن خبث الحديد

او كما قال الآخر :

عتبت على سَلْمٍ فلما فقدته
وجربت اقواماً بكيْت على سَلْم

هذا هو النظر العلمي الصحيح لهذه القضية .

ولكن لا يجوز ان ننسى المثل السائر : لا دخان بلا نار . فلا بد من ان يكون وراء الدعوة الى العاميات شيء ، ولا بد من ان يكون بعض الداعين الى العامية قد احنقهم هذا الجمود الذي يستولي على اولي الرأي . والواقع انا جامدون ، وعلينا ان نجدد سالكين السبل التالية :

اولاً : علينا ان نعلّم الشعوب العربية لنرفع مستوى تفكيرها . ومتى ارتفع الفكر ارتفعت اللغة . ومن العبث التهرب من هذه المسؤولية الكبرى التي تقع على عاتق المفكرين. والازمة الفكرية والاجتماعية بله السياسية والاقتصادية مرتكزة على هذه النقطة. وهي نقطة الانطلاق نحو حياة اكرم واخصب. ونحن لا نستطيع ان ندعي وجود امة عربية ونسبة الاحياء عقلياً فيها لا تتجاوز الخمس او الربع على اوسع تقدير .

ثانياً : ان التراث العربي ما يزال مجهولاً . ولا بد من اظهاره والافادة من العناصر الحية فيه ليتصل حاضرنا بماضينا من جهة ولنتفاعل مع ذلك التراث ونمتص منه خير ما فيه ونهمل ما لا خير فيه .

ثالثا : لا بد من الاتصال بالحضارة الغربية الحديثة – كما فعلنا في العصر العباسي يوم فتحنا عقولنا للحضارات الاجنبية – اتصالاً تاماً لاتحفظ فيه ليزداد ادبنا اتزاناً ولغتنا دقة وحضارتنا قوة . ولنذكر ان الحضارة تراث انساني عام اسهمت فيه جميع الشعوب المتحضرة وامتزجت عناصرها امتزاجاً تاماً يصعب معه الفصل . والحضارة كل لا يتجزأ لان لكل مظهر من مظاهرها آثاراً تتغلغل في جميع نواحي الحياة . ومجموع هذه المظاهر والآثار هي ما نسميه حضارة .

رابعاً: لا بد من ان ننظر الى اللغة نظراً حديثاً يقتضيه هذا النمو الواسع العميق في العلوم والآداب والفنون . ومن العبث ان ننفق العمر كله في درس اللغة . فهي وسيلة لا غاية . وهي كائن حي ينمو ويتطور مع نمو المجتمع. ورجال الفكر والادب والفن هم الذين يرسمون الاتجاهات التي تسير فيها لا العوام الذين لا يملكون سعة الاختبار وقوة التعبير .

خامساً : وتحتاج اللغة الى تيسير يتناول قواعدها وعروضها ومعاجمها . فالكتب القديمة اشبه بآثار تاريخية ، يستفيد منها دارس تاريخ العلوم العربية . اما طالب اللغة على انها وسيلة فينفر منها اشد النفور ، ويستخلص منها ان اللغة نفسها شاقة مشوشة وغير منطقية . وهذه نعوت تنطبق على كتب اللغة لا

اللغة ذاتها .

سادساً : ما تزال العربية الفصيحة في نهضتها بعد كبوتها التي دامت عدة قرون . والكتاب والشعراء كانوا في دور احياء وبعث لا ابداع وابتكار . ولا بد من مضي بعض الوقت حتى يتجه اصحاب الاقلام الى الحياة نفسها يمتحون من بئرها ويعبرون عنها بغزارة وانطلاق . واللغة لم تدر بعد على الالسنة حتى تصبح سليقة . وليس فيها الكتب الملائمة لمختلف الاعمار ، المشوقة الى القراءة ، والمفتقة للمواهب ، والدافعة الى اكتساب المزيد من الخبرة في آفاق الحياة الواسعة .

ولا شك عندي في ان اللهجات العاميات لن تحل مشاكلنا هذه بل ستزيدها تعقيداً ، وستكون سهماً يوجه الى صميم وحدتنا المنشودة ، وربما انتهت الى القضاء على كل امل في بناء (العروبة) التي يطمع فيها الاحرار الاخيار . فلنحكم عقولنا في هذه الدعوة التي يدعو اليها نفر منا ، ولنتدبر العواقب قبل الانزلاق في هوة مردية . وأردد مع الاب مارون غصن بيتي حافظ ابراهيم :

الحكم للأيام مرجعه فيما رأيت ، فنم ولا تسل
وكذا طهاة الرأى تتركه للدهر ينضجه على مهل

على ان لا ننام ولا نركن الى الاتكال بل نسير قدماً

بكامل عقلنا ووعينا نحو حياة لا يفوز بطيباتهـــا الا العاملون المكافحون .

وخير ختام لهذا الفصل كلمة بليغة لمي زيادة قالت :

« ان المرحوم الدكتور شميّل قبل وفاته بشهور قليلة حضر درس الكونت دي جلارزا استاذ الفلسفة يومئذ في الجـــامعة المصرية. وكانت المحاضرة في فلسفة ارسطو. فمضت دقائق تقريباً والدكتور يصغي بانتبـــاه تام . اذ ذاك لفظ الكونت كلمة الطبيعة ثلاث مرات في جملة واحدة . فمـال نحوي الدكتور شميل وسأل : اوطني هذا المحـــاضر ام اجنبي ؟ فاجبت : هو مستشرق اسباني !

« ذكرت تلك الحادثة متعجبة كيف ان اناساً ولدوا في جرود لبنان او في انحاء سوريا او في سهول مصر يجدون اللغة (خشنة يا الهي! تمزق الحلق) ويحسبون من يتكلمها في المجتمعات فلاحاً، في حين ان اجنبياً يتقن لفظها ويحسن الافصاح بها في موضوع فلسفي عويص ! يحسن ذلك الى درجة ايهـــام رجل كالدكتور شميل وحمله على التردد مدة عشر دقائق تقريباً قبل ان يقدم على الاستفهام : هل ذلك الاجنبي من اهل اللغة ام من محبيها »[٢٥]

ورحمك الله يامي ، ورحم كل شجاع يجرؤ على قولة الحق !

الفصل الرابع

الحروف العربية والحروف اللاتينية

تلي قضية الفصحى والعـــامية في الخطورة والذيوع ، قضية الحروف العربية ، وضرورة استبدال الحروف اللاتينية بها .

والمشكلة التي ما فتىء الباحثون ـ او على الاصح ـ الداعون الى هجر الحروف العربية ، يثيرونها ، ذات شقين: الاول تعذر ضبط الكلمـــات حين تكون مجردة من الشكل ك « علم » و « كتب » و « مصر » الخ.. ، والثاني اعتماد المعنى على الشكل ، الامر الذي يقتضي فهم قواعد اللغة العربية قبل استنباط المعنى. وقد عبر عن ذلك قاسم امين بقوله : « في اللغـــات الاجنبية يقرأ الانسان ليفهم. اما في اللغة العربية فيجب ان يفهم الانسان ليقرأ » .

ولا بد من الاشارة الى ان هذه الصعوبة مبالغ فيها، لاسباب:

اولاً ، لاننـا حين نضرب الامثـال على تعدد وجوه اللفظ الجائزة ننتزع الكلمة من الجمل ونعرضهـا في شكل مبهم ، مع ان الواقـع ان الانسان لا يتكلم ولا يقرأ كلمات متقطعة ، منفصلة بعضهـا عن بعض ، والقرينة في الكلام والقراءة تزيل كثيراً من الابهـام وتعين على تقرير وجه من وجوه الشكل دون آخر . مثال ذلك لفظة « علم » في الجمل الآتية : —

— يتبين لي ان علم الاستاذ واسع .
— علم فلان بمرض اخيه فحزن كثيراً .
— علم الوالد ابنه كيف ينبغي ان يجلس مع الزائرين .
— علم الدولة يرفرف ابتهاجاً بعيد الاستقلال .
— علم ان طائرة سقطت في البحر .

فاللفظ في الامثلة السابقة يقرأ او يفهـم في كل جملة دون التباس ، وان وردت حروفه خالية من الشكل . يضـاف الى ذلك أن الجمل متصلة لهـا قرائن تزيد في تبيان نطق المفردات . وقد اوردناها هنا متقطعة للايجاز. وقس على ذلك سائرالكلمات.

والسبب الثاني من اسباب المبالغة، توهمنا ان اللغات الاوربية او بعضها (كالايطـالية والانكليزية والفرنسية) تخلو من هذه الصعوبة . والواقع خلاف ذلك . فان الاجانب الذين يتعلمون هذه اللغات يعانون كثيراً من الصعوبات في ضبط نطقهـا على

كثرة الحروف الصائتة ـ حروف العلة التي تنوب مناب الشكل في لغتنا ـ فيها . اما سهولة نطقها على ابنائهـا انفسهم فليس مصدرها وجود الحروف الصائتة بل قرب اللغة المحكية من لغة المدرسة ، خلافاً لما هو واقع في البلاد العربية .

وللدلالة على وجود هذه الصعوبة في اللغات الاوربية ، وفي اللغات جميعاً ، اورد ما يلي :

(١) قال الاستاذ ج. ر. فيرث ـ استاذ علم الاصوات وعلم اللغة في مدرسة اللغات الشرقية والافريقية في لندن اليوم ـ في كتاب له عنوانه Speech = الكلام ـ ص ١٠ :

« It is very important to remember when associating what is said with what is written, that it is imposible to represent fully to the eye what is meant for the year »

وخلاصته « انه من المستحيل ان نمثل للعين تمثيلاً تاماً مـا وضع اصلاً للأذن » .

وهذا الحكم عام ينطبق على جميع اللغات ، حتى اللغات التي يتصل شكلها ـ حركاتها ـ بهـا ، واعني بصورة خـاصة اللغة الحبشية . فهذه اللغة ذات حروف مشكولة بالوضع ، لان كل حرف فيها يرد على سبع صور للدلالة على وجوه النطق المختلفة. ومع ذلك فلا بد لضبط اصواتها من اخذها بالمشافهة، لان هناك عدا

الحركات صعوبة في ضبط الاصوات الصـامتة Consonants ، وضبط الضغط على المقـاطع accent ، وضبط مـا يعرف بالـ intonation

(٢) قامت في انكلترا حركة قوية لاصلاح الحروف وجعل صورها اقرب الى تمثيل الاصوات مما هي الآن . وصدرت في لندن مجلة اسمها Le Maitre phonetique بحروف بعضها جديد وبعضها فيه زيادات على الحروف اللاتينية المستعملة لتحقيق هذا الغرض ، ولو كانت حروفهم دالة على النطق في غير التباس لما قامت هذه الحركة ولما انشئت المجلة .

وكان من دعـاة اصلاح الحروف الانكليزية الكاتب الانكليزي برنارد شو . ولكن دعوته كانت على النقيض من دعوة غيره ، ومن دعوة انصار الحروف اللاتينية . كتب شو كلمة يخاطب فيها قومه اثبت هنا خلاصتها : «ان فكرة تغيير كتبنا ومطابعنا لاصلاح الحروف تبدو كأنها اثقل من ان نفكر فيها بجد . فالثمن الباهظ يمنعنا من ذلك . وانه لمن المضحك ان نكتب كلمة though بستة حروف بدل حرفين، كأن الوقت المضاع ما هو الا جزء من الثانية . ولكن اضرب ذلك الجزء من الثـانية بعدد المرات الذي نكتب فيه هذه الكلمة في الامبراطورية البريطانية وفي شمالي امريكا كل ساعة وكل يوم

وكل شهر وكل سنة وكل قرن يرتفع الثمن من ربع البني - ما يعادل المليم المصري والقرش اللبناني - الى جنيهات ، عشرات الجنيهات ، مئـات ، آلاف ، ملايين ، ملايين الملايين من الجنيهات . وعندئذ يبدو ثمن التغيير زهيداً للغاية!

« ان كون روسيا بحروفها الخمسة والثلاثين تستطيع ان تكتب اسمي بحرفين بدل اربعة، يجعل من المستحيل علينا ان ننافسها اقتصادياً . وانا مستعد ان اقف كل ما املك على وضع اثنين واربعين حرفاً جديداً . لقد اقتصدت سنين كثيرة في استعمال مثل تلك الاحرف في مؤلفاتي . ولكن كان لا بد من اعادة كتابتها وطبعها على الآلة الكاتبة، ثم اعدادها للطبع بالحروف الفينيقية (يقصد الحروف المعرفة باللاتينية ، وسماها الفينيقية باعتبار الاصل البعيد). وبذلك لم يقتصد احد في وقته سواي ».(٢٦)

ولا بد من الاشارة اولاً الى ان هذه النزعة الاقتصادية التي يراها القاريء لا ينفرد بها شو. انها نزعة امة يمثلها اشهر كتابها. وثانياً الى انها تنبيء عن التفكير الاقتصادي الذي يسود العالم. وثالثاً الى انها توجه الى امة تعد من اغنى دول العالم ، دينارها كقرشنا على اقل تقدير .

واذا كانوا هم يحاسبون على الحرف الواحد فعلام نحاسب نحن ؟ . يجب ان نحاسب على النقطة حتى نحفظ بلادنا من الدمار

في الصراع العالمي الهائل...

(٣) ان الاستاذ دانيال جونز استاذ علم الاصوات في جامعة لندن سابقاً اثبت ان الحروف الصامتة يختلف نطق الحرف الواحد منها باختلاف موضعه من الحروف الاخرى. وله في ذلك نظرية مشهورة تعرف بنظرية الـ phonemes ، استرعى اليها الانظار (راجع An outline of English Phonetics, p. 48 ، ورسالته On phonemes نشرتها جمعية علم الاصوات الدولية.)

وهذا يثبت ان صعوبة النطق الصحيح عرفاً ليس منشؤها حذف الحركات فحسب ، بل هناك صعوبة نطق الحروف الصامتة ذوات الاصوات المختلفة باختلاف الوضع ، وصعوبة ضبط الضغط على المقاطع ، وصعوبة ما يعرف بالـIntonation. وهذا كله موجود في اللغة العربية وفي اكثر اللغات . واذن فلا سبيل الى ضبط النطق ضبطاً محكماً الا بالمشافهة . وان حاول العلماء ايجاد رمز جامع مانع لتمثيل الصوت على الورق تمثيلاً كاملاً ، تعددت الرموز تعدداً منكرا وأضحت القراءة معجزة.

والسبب الثالث من اسباب المبالغة في تقدير الصعوبة ، ربط الحركات ربطاً كلياً بفهم المعنى . فقد يُتوهم انه ان اشكلت الحروف اتضح معنى الكلمات وزال الالتباس. والواقع ان القارىء

يفهم ما يقرأ في الغالب دون ان يحسن نطق الكلمات ودون ان يعرف حركاتها الاعرابية . واكثر المتعلمين اليوم يلحنون ، وهم مع ذلك ان قرأوا جريدة او كتاباً فهموا ما يقرأون ، ولم يحُل فقدان الحركات وجهل القواعد دون فهمهم .

اعرف كاتباً ينشىء بلغة فصيحة جيدة ويفهم ما يقرأ فهما دقيقاً ، وهو مع ذلك ان قرأ سكّن اواخر الكلمات وخرج عن قواعد اللغة في اكثر ما يلفظ .

يضاف الى ذلك كله ، اننّا شاهدنا في فلسطين جرائد وكتباً عبرية تصدر بلا شكل ـ وحروف العبرية كحروف العربية ذات حركات منفصلة ـ ومع ذلك كان القراء يفهمون ما يقرأون وينطقون نطقاً صحيحاً ما يلفظون. اما فهمهم فسببه ان الحروف الصامتة كافية لتوضيح المعنى ، واما ضبط نطقهم فسببه ان لغتهم موحدة في البيت والمدرسة .

على ان تجريد الصعوبة من المبالغة التي ذكرتها لا ينفيها . فاني اتفق مع القائلين بأن الصعوبة موجودة بلا شك ، ولكني لا اراها ناجمة عن فقدان الشكل ، بل عن عوامل اخرى اجملها فيما يلي على وجه الاختصار :

اولاً : الاختلاف الكبير بين لغة البيئة في اصواتها والفاظها

وتراكيبها ولغة المدرسة ، فالطالب يتعلم ويقرأ لغة بعيدة عن استعماله ومألوفه . وبما ان لغته العامية اشد تمكنا من نفسه ولسانه فانها تفسد لغة الصنعة فيتولد اللحن وفساد التراكيب . وعلاج هذه المشكلة لا يتأتى الا بتوحيد اللغتين . وما نلحظه من ضبط بعض الاوربيين نطق لغاتهم يعود الى سماعهم ذلك النطق في بيئتهم الخاصة والعامة ، ولو كان لهم لغتان متباينتان تباين لغتينا لحاروا حيرتنا ، ولحنوا لحننا .

ثانيا : ان مجموع المتعلمين الذين يقرأون ويكتبون يتراوح في البلاد العربية ما بين ١٩ و ٣٠ في المئة - على ما نظن . ومعنى ذلك ان اللغة الفصيحة لغة مصطنعة لانها لغة اقلية ضئيلة. ولا بد من ازالة ذلك اولاً قبل ان تتمكن اللغة الفصيحة والنطق الصحيح من الالسنة. وما يظهر بعد ذلك، من عيوب في النطق والكتابة يعالج في ظروف اكثر وضوحا من الظروف الحاضرة.

ثالثا : فساد اساليب التعليم - وخاصة تعليم اللغة العربية - وفساد كتب القواعد وبعدها عن تحقيق الغرض الذي وضعت له لاسباب كثيرة اشرت الى بعضها في كتاب (رأي في تدريس اللغة العربية) . وامامنا واجب وضع كتب جديدة في القواعد مسترشدين بعلم اللغة (اللنكوستيك) من جهة وعلم التربية والتعليم من جهة اخرى . ولا بد من فتح باب الاجتهاد في هذا

الموضوع وقبول النقد لا سيما نقد اساتذة اللغة العربية الذين عانوا مشاق تدريسها في مختلف البلدان العربية. وربما اتضح لنا بعدُ، أن اصلاح قواعد اللغة العربية مقدم على اصلاح الحروف، وان نشر القراءة والكتابة يحل مشاكل كثيرة او يذللها، فتبدو مشكلة الحرف دون ما نراها اليوم خطورة. ومع ذلك فان الحروف العربية نفسها قابلة للاصلاح. وقد كتب في ذلك كثير من المفكرين(٢٧)، ولكن الكلمة الاخيرة التي تظفر بالاجماع لم تقل.

* * *

بقي أن نوازن بين الربح والخسارة في هذه القضية.

اولاً: ان من المسلم به ان الحروف اللاتينية -كما هي الآن- عاجزة عن تأدية الاصوات العربية تأدية تامة. ذلك ان في العربية اصواتاً كثيرة لا مثيل لها في اللغات الاوربية، ولا رموز لها في الحروف اللاتينية. مثال ذلك الح، خ، ق، ص، ط، ظ، ع، غ،. ولا بد لادائها من حروف نلتمسها في غير الحروف اللاتينية.

يضاف الى ذلك امر ادق، وهو ان الحروف الصائتة (حروف العلة) في اللاتينية لا تميز بين الصوت الطويل والصوت القصير. ولذلك نجد المعاجم الانكليزية ترسم الكلمة رسما صوتيا بالاضافة الى الرسم المصطلح عليه، لارشاد الباحث الى طول

الصائتات وقصرها ، والى فروق اخرى بين رسم الصامتات ونطقها . ويظهر انه ليس لطول الصائت وقصره دلالة لغوية اصلًا . اما اللغة العربية فلطول الصائتات وقصرها فيها دلالة لغوية . مثال ذلك قَتَلَ وقاتل ، فالفرق الصوتي بينهما قصر الصائت بعد القاف في قتل ومده بعد القاف في قاتل . وهذا الفرق الصوتي ذو دلالة لغوية، كما لا يخفى، تظهر من الفرق بين فعل (قتل) وفعل (قاتل) ، و (كتب) و (كاتب) الخ.. وبسبب هذه الدلالة رسمت الصائتات الطويلة بما يعرف بحروف العلة واثبتت في صلب الكلمة ، ورمز الى الصائتات القصيرة بالحركات ، واهمل رسمها في بدء الكتابة ، ثم اثبتت . ولكنها ظلت فضلة تستعمل حينا وتهمل حينا آخر . ولو كانت هذه الصائتات القصيرة كلها ذوات دلالة اصلًا لوضع لها رمز خاص. وهذا ينطبق على اللغات السامية التي نعرفها كالعبرية والسريانية. وليس عجباً بعد هذا ان نجد لغة سامية قديمة كالحميرية ـ تهمل الصائتات القصيرة ــ الحركات ـ اطلاقا .

وان استعيرت الحروف اللاتينية للكتابة العربية فسنقع في مشكلة معقدة. ذلك انه لا بد من توليد اشارات خاصة بالطويل والقصير من الصائتات ـ كما صنع انصار اصلاح الحروف الانكليزية وواضعو الحروف الدولية ـ فتجهد العين وتتعقد الكتابة .

واثبات جميع الصائتات - طويلها وقصيرها - سيخفي صلة الكلمات بعضها ببعض، هذه الصلة التي تدركها العين سريعا حين تعرض الحروف الصامتة مجردة من الصائتات القصيرة (الحركات). ويكون مثلنا حينئذ كمثل من يتخلى عن بيته الذي سكنه ولاءمه الى بيت آخر جديد ليس اكثر ملاءمة. وربما كان الاولى ان نصلح البيت القديم بدل هجره.

ثانيا: «ان رسم العربية باللاتينية يضيع على القارىء تبين اشتقاق اللفظ الذي يقرؤه. فاذا عسر عليه صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذي لا نسب له، وصار فرضا عليه ان يعمد الى رسم المادة الواحدة من اللغة في جميع صورها التى تكون في السياق العربي، ثم عليه ان يحاول تقريب الشبه بالذاكرة الواعية، ثم عليه ان يحفظ معاني ذلك كله. فاذا كان هذا شأنه في المادة الواحدة فما ظنك باللغة كلها؟ يومئذ تصبح العربية اجهد لطالبها من الصينية! نعم، واذا ضل عن تبين الاشتقاق والتصريف فقد ضل عن العربية كلها، لانها لم تبن الا عليهما. وهي من هذا الوجه مخالفة لجميع اللغات التي تكتب بالحرف اللاتيني، لان الاشتقاق والتصريف يعرضان لها من قِبَل بناء الكلمة كلها، حتى تختلف الحركات على كل حرف في كل بناء مشتق او مصرّف، ثم يزيد عن ذلك ما يدخل على الكلمة من جميع ضروب الحروف

العــاملة وغير العاملة ، ثم علل البناء والحذف ... الى آخر ما يعرفه كل مبتدىء في العربية .

« فاذا كان هذا هكذا ، وكان التضليل كائنا فيه ، وكان هذا التضليل واقعــا في اصول الاشتقــاق والتصريف الذي يرد القارىء الى اصل المادة اللغوية، واذا كان الضلال عن اصل المادة ضلالاً عن معناها ، فــاي السبيلين اغمض واضل : سبيل عسر القراءة لعدم (حروف الحركات) ام سبيل امتناع الفهم لامتناع الاهتداء الى اصل الاشتقاق ؟ [٢٨] »

مثال ذلك لو كتبنــا « كاتابا ياكتوبو ، في الماكتابي ، كتابن » بدل : « كتب ، يكتب ، في المكتب ، كتابا » لالتبست مادة الفعل، وهي اصل الاشتقاق والعمدة في التصريف، وظهرت في صورة تلبس الاصلي بالزائد — ولهذا كان خيراً ان تشكل الكلمات العربية شكلًا خارجا عن بنية الكلمة[٢٩].

ثالثا: ان الكتابة بالحروف اللاتينية لا تمنع الكتاب المختلفين ان يكتبوا الكلمة على صور مختلفة كلها خطأ وخروج على القواعد اللغوية . ومن هنا يشيــع التبلبل في الالسنة ويتقرر بتسجيله في الكتابة والطباعة بدلاً من تركه محتملًا للقراءة على الوجه الصحيح. والخطأ في النطق اهون ضرراً من الخطأ المكتوب او المطبوع، لان كتابة الخطأ تبقي خطأ النطق وتزيد عليه انها تسجله وتضلل

من عسى ان يهتدي الى الصواب [٣٠].

رابعا : اذا كتبنا ما نحكي اليوم فبأية لهجة نكتب ؟ ان اللهجات المحلية لا حصر لها ، فلكل قطر لهجة عامية ، ولكل منطقة في داخل القطر لهجة ، ولكل بلد او مجموع متقارب من البلدان لهجة . وعندنا لهجات مدن ولهجات قرى ولهجات بدو ولهجات طوائف . فبأية لهجة نكتب ؟ واذا ترك لكل امرىء ان يكتب باللهجة التي يتكلمها تبلبلت السنتنا وتشعبت لغاتنا وانتهينا الى فوضى مريعة . وهل يكتب الالمان اليوم بلهجاتهم المحلية ام باللهجة الفصيحة ؟ وبم يكتب الانكليز ؟ ولو دعا داع اليوم في انكلترا الى الكتابة باللهجة الاسكتلندية او لهجة ويلز او ايرلندا لقام الناس عليه ورموه بالبله والحمق . ونحن ما نزال مفرقين من اثر الماضي المشؤوم، ومنذ بدء النهضة وانتشار التعليم اخذنا نتقارب ونتوحد ، فاية ضربة تنزل بنا ان سجلنا تفرقنا على « صكوك » ؟ واذا كان الغرض التيسير فاي تيسير هذا الذي يدعو الى تعلم عشرات اللجهات بدل لغة واحدة؟ والى تعلم عشرات القواعد بدل قاعدة واحدة ؟ والى تعلم عدد من الالفاظ بدل لفظة واحدة ؟

خامسا : ان هذه القضية تضاعف ازمة التأليف . فالكتاب العربي الممتاز المكتوب بلغة « فصيحة » واحدة لا يتجاوز ما

يطبع منه اليوم الفي نسخة . ونفقات التأليف والطباعة واحدة تقريبا. فكم قارئا يقرأ كتابا كتب بلهجة محلية لا يحكيها سوى الف او عشرة آلاف ؟ ومثل هذا ينطبق على المجلة والجريدة .

سادسا : وماذا نفعل بالتراث العربي منذ الف واربعمئة سنة الى اليوم ؟ انقطع صلتنا به ، ام نتعلم اللغة الفصيحة الى جانب لهجتنا – او لهجاتنا – كي نقرأ القديم والحديث ؟

علينا ان نحسب لهذه الامور حسابا قبل ان نقدم على هجر الحروف العربية واستبدال الحروف اللاتينية بها !

اليس اولى من هذا كله ان نصلح الحروف العربية نفسها على نحوٍ لا يطمس معالم اللغة العربية ولا يودي بنهضتنا الفتية ولا يورثنا الانحلال والتفرقة وربما «الفردية» التي تناقض روح العصر؟ بلى، هذا هو المخرج السليم من ازمة الحروف العربية الذي اتفق عليه معظم الذين عالجوا هذا الموضوع[٣١] .

الفصل الخامس

ناحية من نواحي العقلية العربية

يواجه دارس العقلية العربية مسالك كثيرة للنفاذ منها الى البحث المنتج . ومن هـذه المسالك : كيفية النظر العربي الى الحياة جملة ، وطريقة معالجة المشاكل الناجمة في البيئة المحلية او البيئة العربية ، ومجرى التفكير في المسائل العقلية الصرفة من حيث الشمول او العمق ، وكيفية التفاعل بالفكر الدخيل ، والمقدرة على التكيف حسب الظروف الطارئة وما الى ذلك .

وكل مسلك من هـذه المسالك يحيط بجانب من جوانب العقلية ويلقي عليه ضوءاً ؛ ولكن ثمـة مسلكا آخر يختلف عن تلك المسالك من حيث الاسلوب على الاقل ، هو استنباط خصائص العقلية من اللغة ؛ لانه لا شك في ان اللغة أثر من آثار العقل ينجم عن مؤثرات اجتماعية . وجميع الانفعالات لا بد من ان تصل الى العقل فيعبر عنها برموز صوتية مجموعها اللغة .

وقد تأملت طويلًا في بعض مناحي اللغة العربية، هو المنحى الصرفي. وعرض لي ما يدعو الى دراسة العروض العربي دراسة مستفيضة ، فتقاربت نتائج البحثين في الدلالة على العقلية العربية.

* * *

نواة الكلمة في العربية الجذر الثلاثي المؤلف من ثلاثة مقاطع قصيرة – او بلغة الفيلولوجيين – ثلاثة اصوات صامتة ، مثل : ض ر ب و ق ت ل الخ..

ومن هذه النواة يبنى ما يعرف بالمزيدات ، بزيادة حرف او اكثر على الاصل الثلاثي . وهذه المزيدات البالغ عددها ثلاثة عشر مزيداً تؤدي عدداً كبيراً من الدلالات لها كلها صلة ما بالاصل . ففتح مثلًا يؤدي معنى الفتح. وفتّح يزيد عليه بالدلالة على التقوية والتكثير ، وفاتح يزيد عليه بالدلالة على المشاركة . وانفتح يزيد عليه بالدلالة على المطاوعة . واستفتح بالدلالة على طلب الفتح الخ.. حسبما نجد في كتب الصرف .

واذن فالجذر – او الاصل الثلاثي – هو النواة التي انبثق منها عدد من الافعال، ذات الدلالات المختلفة بعض الاختلاف، والمتصلة جميعها بالمعنى المتضمن في الجذر . وهذا يدل على ان النمو في العربية ذاتي انبثاقي من اصل منفرد، وانه محدود بعدد المزيدات ودلالاتها المعنوية . ولا نعرف عن علماء اللغة القدامى

او المحدثين انهم اجازوا التوسع في مبدأ الاشتقاق فزادوا مزيداً او مزيدين او اكثر على عدد المزيدات التي نصت عليها الكتب القديمة. ومعنى ذلك ان نمو اللغة توقف في حدود هذه المزيدات ولم يكن قائما على مبدأ عام يجوز اضافة مزيدات اخرى للدلالة على معاني مستحدثة .

واذا جاز لنا ان ننحو نحو علماء اللغة Linguistics فانا نفرض ان العربية كانت في مرحلة من مراحلها القديمة مؤلفة من جذور فقط تؤدي معاني اولية ، ثم تلتها مرحلة اخرى اخذت فيها الجذور تنمو ـ من ذاتها ـ بزيادة اصوات على الاصل لاداء معاني اضافية متصلة بالمعنى الاولي . ثم توقف النمو عند هذه المزيدات ، واجيز القياس عليها . دون القياس على مبدأ النمو من الجذر نفسه باضافة زيادات غير تلك التي زيدت في مرحلة من المراحل ـ (ومن المعلوم ان الزيادات محصورة في الحروف المجموعة بقولك سألتمونيها) ـ .

وخاصّية النمو الذاتي الانبثاقي هذه لا نظير لها ـ حسب معرفتنا ـ في اللغات الاوروبية التي نلم بها ، فانه ليس فيها ما يشبه المزيدات المنبثقة من اصل ثلاثي . وللدلالة فيها على ما يشبه المزيدات يستعان بالفاظ جديدة او يستعار لفظ جديد من لغة اخرى . ولو اردنا ان نترجم المزيدات التي ضربناها مثلاً من

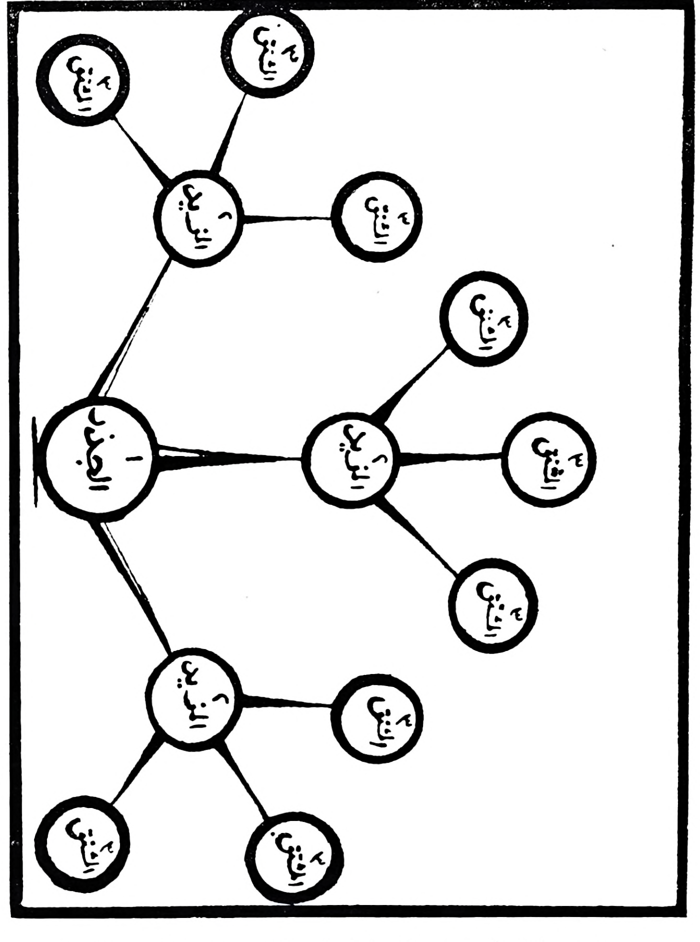
مادة فتح الى الانكليزية لقلنا: فتّح =He opened serverely؛ وفاتح Started negociation؛ وانفتح = it was opened؛ واستفتح = He asked to open الخ.. وقس على ذلك الفرنسية والالمـــانية وسائر الاوربيات . فالعربية تنمو من داخل نمواً بنائياً . واللغات الاوربية تنمو من خارج بالاستعانة بالفـاظ جديدة وفي حالات قليلة بامتصاص ما تحتاج اليه من افعال من اللغات التي تتفاعل واياها او تحتك بها . وبذلك يكون نموهـا بالتوسع غير المحدود عن طريق الاستعانة والاستعارة ، في حين نرى نمو اللغة العربية ذاتيـاً محدوداً بالقياس على مـا عندها من قوالب – او مزيدات – محدودة .

وتخطو العربية خطوة اخرى في النمو الذاتي باستخراج عدد من المشتقات من كل من المزيدات. وينص الزمخشري في المفصل على ان الاسماء المتصلة بالافعال ثمانية: المصدر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة ، واسم التفضيل ، واسماء الزمان والمكان والآلة . ومع ان اشتقاق جميع هذه الاسماء من المزيدات ليس مطّرداً الا ان اشتقاق بعضها قياسي مطّـرد ، والمبدأ سليم. فمن فتح يشتق فاتح ومفتوح ومفتاح ومفتح . وهكذا من سائر المزيدات على نطاق اضيق حسب قواعد الصرف .

وهذه المشتقات محدودة ايضاً لم يجوزوا الزيادة عليها. وهي

منبثقة من المزيدات على وجه يحاكي انبثاق المزيدات من الجذر، او الاصل الثلاثي. وهي ايضاً عديمة النظير في اللغات الاوربية، اذ ان زيادة ER او OR (وما يقابلهـا في الفرنسية والالمـانية) ليس مطرداً اطراد اشتقاق اسم الفاعل من الثلاثي والمزيدات. مضافـاً الى ان هذه لواحق لا قوالب كما هو الحال في العربية. ويتضح من ذلك ان العربية تزيد معانيها بالنمو الذاتي ضمن عدد محدود من القوالب في حين تزيد الاوربيات معانيهـا بالاستعانة والاستعارة.

ومن باب التوضيح نضع ما شرحناه سابقاً بالصورة التالية :



فـالرقم الاول يشير الى الجـذر المعروف بالاصل الثلاثي . والرقم الثـــاني يشير الى المزيدات المنبثقة من الجذر . والرقم الثالث يشير الى المشتقات المنبثقة من كل مزيد .

وتبين الصورة بوضوح ان نمو الافعال والمشتقات ذاتي انبثاقي من الواحد الى المتعدد في نطاق محدود . وهذا النمو اشبه بنمو الشجرة من الساق الى الغصن الى الفروع .

وتشغل المزيدات والمشتقات معظم الصرف . وما تبقى من سائر الابواب كالتثنية والجمع والتصغير والنسبة، متصلة بالاسماء دون الافعال ولها احكام مختلفة . واذا حققنا النظر في القواعد العامة التي تؤلف هذه الابواب نجدها ترجع الى مبدأ مشابه للمبدأ الذي استخلصناه من دراسة المزيدات والمشتقات. ويقع التشابه في ان لبعض هذه الابواب قوالب تصب فيها الكلمة المراد جمعها جمعاً تكسيراً او تصغيرها . وجمعا المذكر والمؤنث السالمان والنسبة تختلف عن ذلك باخذ لواحق كما هو مبين في قواعد الصرف . وليس ذلك غريباً. فان الالفاظ الجامدة جامدة بحق وليس لها قابلية التوالد التي للافعال . والنظام الفعلي – كما يلوح لنا – اعرق من النظام الاسمي. والاسماء تدخل اللغة بالتدريج من مصادر متعددة بعد ان تصبها اللغة في قوالبها المحدودة .

* * *

ولننظر الى الاسس التي يقوم عليها العروض العربي الذي يتألف من ستة عشر بحراً (يذكر العروضيون ان الخليل استخرج خمسة عشر بحراً وان الاخفش زاد بحراً هو المتدارك.

ولا حاجة الى بحث هذه النقطة هنا).

يبدو أول وهلة ان هـذا العروض متنوع الموسيقى تنوعا لا نظير له في اللغات الاوربية . على انا اذا حققنا النظر راينـا هذه البحور جميعها تقوم على ثمانية قوالب — او تفـاعيل حسب اصطلاح العروضيين او مجـاميع مقطعية حسب اصطلاحنـــا اليوم — فحسب . وهذه هي: فـــاعلن ، فعولن ، فاعلاتن ، مفعولات ، مفاعلتن ؛ مستفعلن ، مفاعيلن ، متفـاعلن . وينشأ من تكرار قالب واحد والمزاوجة بين قـــالبين مختلفين جميع البحور . فمن تكرار فعولن اربع مرات ينشأ المتقـــارب ، وتكرار فاعلاتن ثلاث مرات ينشأ الرمل ومن الجمع بين مستفعلن وفاعلن (اربع قوالب لكل) ينشأ البسيط . وهكذا كما هو مفصل في كتب العروض [٣٢] واذن فمرد هذه البحور الكثيرة كلها الى ثمانية قوالب مقطعية فحسب ، يلعب بها الناظم مكرراً ومزاوجاً مقدماً ومؤخراً مثبتاً وحاذفـاً . وليس له ان يقيس على المبدأ بتوليد قوالب جديدة والجمع بينها على غرار مـا فعل الشعراء القدامى . بل ليس له ان يستعمل المهمل من البحور التي استخرجت من دوائر العروض ، لا لسبب الا ان القدامى اهملوها ، مع انها من الناحية الفنية المحضة لا تختلف عن مثيلاتها المستعملة . اليس هذا شبيهاً بتحديد المزيدات والمشتقات في الصرف ?

وان خطونا خطوة اخرى في فحص هــذه القوالب (او التفاعيل) الثمانية وجدناها تتألف من نوعين من المقاطع ، مقطع طويل ومقطع قصير ، ففاعلن تتألف من مقطعين طويلين بينهما مقطع قصير . ومستفعلن تتــألف من ثلاثة مقاطع طويلة يلي ثانيها مقطع قصير . وهكذا . واذن فأساس العروض العربي مقطعان فحسب تنشأ من الجمع بينهما ثمانية قوالب، ومن القوالب ستة عشر بحراً .

ونستخلص مما تقدم في بحث الصرف والعروض :

اولاً : ان العقلية العربية ـ اللغوية عقلية قوالب محدودة رتيبة وضعت في وقت واكتسبت القيمة النهائية .

ثانياً : وان قوة هذه العقلية في ذاتها .

ثالثاً : وان طبيعتها مقطعية تركيبية انبثاقية .

رابعاً : وانها استقلالية تعتمد على ذاتهـا اكثر مما تعتمد على الاستعانة والاستعارة .

خامساً : وان اصحابهــا يميلون الى الوقوف عند الحدود المرسومة في فترة من الفترات دون القياس على الاسس ، او الجنوح الى الابتكار .

* * *

ولكن عقلية من هذه العقلية ؟

الواقع انها عقلية العرب القدامى الذين تكلموا العربية واصطنعوا العروض في داخل الجزيرة العربية . والبيئة العربية في شمالي الجزيرة — ونحن ممن يستبعد كثيراً النظريات التي تزعم ان عرب الشمال مستعربون ، وانهم اخذوا لغتهم من اهل الجنوب — باتساعها وقحلها واستقلالها وشدة قيظها خليقة ان تتسم بالصفات التي استخلصناها من اللغة والعروض . وان كان ثمت شيء يدق عن التعليل — دون حد الاستحالة — فهو النظام المقطعي التركيبي الانبثاقي الذي وضعنا له الرسم . فهل مرده النمو البطيء المستقل من نواة الى ساق الى غصن كما تنمو شجرة النخيل ؟ ام مرده العزلة في بلاد نائية بعيدة عن التأثر بالعالم الخارجي الى حد بعيد ؟ ام مرده طبيعة البداوة الساذجة القانعة المحافظة ؟ وايا كان السبب فمن الجلي ان الصلة وثيقة جداً ، على وجه ما ، بين هذه الخصائص وبين طبيعة الحياة في داخل الجزيرة ؛ وان النتائج التي استخلصناها من الصرف والعروض مطابقة للخصائص التي يمكن استخلاصها من درس البيئة العربية في شمالي الجزيرة .

ومن التعسف والغلو ان تنسحب هذه الخصائص حتى تشمل العرب في بيئاتهم التي جدّت بعد الاسلام . فموجة التعريب امتدت حتى شملت بلاداً واجناساً لا يمتون للبلاد العربية والجنس

العربي بصلة . فالبيئة التي تعربت فيما بين النهرين وعلى ضفاف النيل كانت مخالفة كل المخالفة للبيئة الصحراوية الجزرية . ويصح ذلك بصورة اوفى على البيئة الايرانيــة واطراف الشرق وشبه جزيرة الاندلس . وانه يبدو عجيباً غاية العجب ان تخترق اللغة العربية تلك الاودية والسهول والهضاب ، وان تدور على السنة ملايين البشر من غير الجنس العربي وتظل مع ذلك محافظة على طبيعتها الجزرية الصحراوية . فهل لذلك علة معقولة ؟

علينا اولاً ان نذكر ان هذه العربية المحافظة هي العربية الفصيحة ، وان اللغات العربية المحكية تأثرت الى حد كبير ، صرفاً ونحواً ولغة ، بالبيئات الجديدة ولغاتها وثقافاتها . وثانياً ان سر تماسك الفصحى امام العوامل الطبيعية التي كانت خليقة بزعزعة اصولها يرجع الى الدين اولاً والسياسة ثانياً. ولسنا بحاجة الى خوض هذا الموضوع. وحسبنا ان نذكر ان انتشار العربية الفصحى لم يتم الا بسبب هذين العاملين النافذين ، وان بقاءها الى اليوم لغة المسجد في الصين والهند وتركيا وشمال افريقيا دليل صدق على ذلك. لقد ضعف العامل السياسي الى حد كبير، لا سيا بعد زوال الخلافة ، ولكن العامل الديني ما يزال قوياً راسخاً مع زوال الخلافة .

لا بد من ان تكون العقلية الاسلامية ـ المكونة من عناصر

متنوعة – قد تصارعت طويلاً مع العقلية العربية اللغوية. وكانت النتيجة ان تمددت اللغة ومرنت ولانت من ذاتها ، وبجدود خصائصها التي ذكرناها، حتى استطاعت ان تستوعب نتاج العقلية الاسلامية في الرياضيات والطب والفلك والفلسفة والاجتماع دون ان تبدو عليها تخمة قاتلة . ان النمو العربي لم يتعد رسومه الاولى . وكل ما حدث ان اطرد القياس في جزئيات القواعد. فكثر مثلاً المصدر الصناعي كالماهية والذاتية والفاعلية ودخل عدد لا بأس به من المفردات الاغريقية والفارسية والهندية والسامية. اما الكيان اللغوي ذاته فبقي سليماً محافظاً على خصائصه كأن الحضارات الجديدة رحلت من بلادها الى داخل الجزيرة العربية واتمت نموها فيها . واذا كان ثمت ظاهرة فذة فهي الموشحات الاندلسية التي نبذت العروض الكلاسيكي وخرجت عن نطاق القوالب (البحور) القديمة ، وتبعها الزجل فأغرق في الخروج عن التقاليد الشعرية القديمة ؛ ولكنها ظاهرة ادبية قليلة الشأن بالقياس الى البحر الخضم من المنظوم الكلاسيكي المحافظ .

والعقلية العربية الحديثة التي تتفاعل اليوم بالحضارة الغربية تجتاز المرحلة نفسها التي اجتازتها الحضارات غير العربية القديمة . فثمة صراع عنيف بين الفكر الغربي الرياضي – الطبيعي – الكيماوي – الآلي واللغة العربية المحافظة . وتتوقف النتيجة على

العقول الكبيرة التي تستطيع ان توفق بين القوتين المتصارعتين دون ان تظهر اعراض التخمة القاتلة . وقد كان القدامى اقرب عهداً الى عصور القوة واكثر تأثراً بالادب العربي واوسع اطلاعاً على اللغة العربية واشد محافظة على النزعات الدينية . ولذلك تم التوافق بين القوتين واجتمعت العقلية الاسلامية الغنية مع العقلية العربية الساذجة ؛ او بعبارة اخرى : نهضت اللغة باعباء الفكر الجديد خير نهوض . فهل هي قادرة اليوم على اداء المهمة نفسها؟ هذا ما تجيب عنه العقود القادمة .

الفصل السادس

تعريب العرب

يبدو لي كلما دققت النظر في مظاهر الوحدة العربية او ما يشبه الوحدة مما هو قائم اليوم بين البلدان العربية ، وكلما طوفت في المدن العربية وتغلغلت في مختلف البيئات ، اننا اقمنا بناء وحدتنا على اسس واهية ، وبتعبير آخر اقمنا بناءنا من اعلى الى اسفل ، لا من اسفل الى اعلى ، كما ينبغي ان يكون البناء الصحيح ، والظاهر ان الذين اشرفوا على البناء تعجلوا الحوادث ، وتجاوزوا الاسس ، عن حسن قصد ، ولا استطيع ان اغالي فأقول عن سوء قصد .

لقد كان الواجب يدعو ان يسبق اقامة البناء درس عميق لحالة الشعوب العربية ، وسبر مدى عربيتها ، او عروبتها - كما يقولون في مصطلحهم الحديث - كي يعرف الى اي حد تتغلغل

العروبة في نفوس ابنائها ، والى اي حد يمكن ان ينفذ البناء في عمق الشعوب العربية، كما يفعل البنّـــاء حين يضرب في الارض باحثاً عن الاسس الصخرية قبل ان يضع الاساس. ومن الطبيعي ان البناء ، دون هذه العملية ، يكون ضعيفاً ومعرضاً للتضعضع في كل حين .

والذي لا شك فيه ان الحماسة للوحدة او على الاقل للتعاون العربي بين الشعوب العربية تجاوزت الحد المألوف ، فتوهم الزعماء السياسيون ان هذه الحماسة كافية في عقد الصلات وتوثيق العرى، في حين ان الحماسة لا يصح ان تكون مقيـاساً لما عليه الشعوب من استعداد حقيقي للتوحد او التفـاهم او حتى عقد المعـاهدات الاخوية بين الاشقاء. ثم ان الحماسة نفسها كان ينبغي ان تكون موضع نظر، اهي حماسة عامة ام خاصة ؟ اهي دائمة او مؤقتة ؟ اهي طلاء ام جوهر ؟ اهي مقدمة ام نتيجة ؟. ولكن شيئاً من هذا لم يتم ، فلا عجب بعد ذلك كله ان رأينا البناء الذي اقامه السياسيون تصدع لاقل صدمة، وان الحماسة همدت واحدثت رد فعل ، وان الحال يدعو إلى اعادة النظر في الاسس التي تقوم عليها الصلات بين البلدان العربية .

قد يذهب البعض الى ان الوحدة التامة مثل اعلى لا تثريب على من يتعالى ويسمو في رسم شارته حتى تظل الابصار مرتفعة اليه

يحدوها الشوق الى بلوغه . ولكن الصلات الاقتصادية والعلمية والادبية ثم السياسية ، لا بد من ان تعتمد على اسس واقعية ملموسة والا جاءت اوهى من خيوط العنكبوت . وليس في ذلك زراية بالمثل العليا ، فهي اماني ترتقي اليها الابصار في ثقة واطمئنان ، على ان تكون السبل الموصلة اليها سبلاً يستطيع الانسان ان يسلكها دون ان يتعثر بألف صخرة وصخرة . فمن المعقول اولاً ان تزال الصخور من الطرق وان تمهد وترصف حتى يرى الناس، غايتهم على بُعدها، واضحة المعالم مأمونة المسالك . وهذا هو البناء من اسفل الى اعلى لا من اعلى، الى اسفل.

* * *

واقع الحال في البلاد العربية اليوم يثبت ثبوتاً قاطعاً ان عروبة العرب اشبه بالطلاء على سطح المعدن واقل حك يزيله ويبرز اللون الاصيل، وبتعبير صريح نقول ان حالة العرب الحاضرة تدل على ان عروبتهم ليست متمكّنة من نفوسهم ، وانها ليست متساوية في مختلف البيئات العربية . وهذا ما يحدوني الى ان اذهب بصراحة الى الدعوة الى « تعريب العرب» اولاً، ثم الربط بينهم او توحيدهم او اقامة اي بناء مكين نطلق عليه اسم الوحدة او الجامعة او ما يشبه ذلك . واود ان اضع فاصلاً بين ما نسميه « امة عربية » و « ثقافة عربية » . فالاولى

مظاهر لم تستكمل نموها ، والثانية حقائق راسخة تمخضت عنها القرون ، وزادتها الايام ثباتاً ورسوخاً . فالشعوب العربية في هذا الوقت - في رأيي - لم تتشرب الثقافة العربية والروح العربية والعناصر الخالدة في الحضارة العربية. واذهب الى حد القول انها لم تفهمها فهماً صحيحاً حتى يصبح الشعب ونظمه وثقافته وأدبه ومثله وحدة لا فاصل بينها . فالمقدمة او الخطوة العملية التي لا بُدّ منها هي التقريب بين هذه الشعوب وتلك العناصر ، وهذا ما اعنيه بالتعريب .

ان المتعمقين في دراسة الثقافة العربية لا يكتمون شدة اعجابهم بها ، واطراء حيويتها والاشادة بصلابتها وعدم خذلانها بتأثير مختلف العوامل التي تعرضت لها في مئات السنوات . ولكن هؤلاء المتعمقين يرون في الشعوب العربية ما لا يرونه في الثقافة العربية نفسها. ويحضرني شاهد يمثل هذه الحالة سمعته اخيراً للتفريق بين ما بلغه المسلمون من ضعف وما بلغه الاسلام من قوة ، وهو يشبه تمام الشبه الفرق بين العرب والثقافة العربية . والشاهد يتلخص في ان فرنسياً ذا شأن في شمالي افريقيا احب الاسلام عن درس وبحث فاعتنقه ، وحين شاع خبره بين مسلمي تلك البلاد ، ثارت حماستهم وطفح سرورهم فاجتمعوا بطبولهم وزمورهم ، وزحفوا نحو بيت الفرنسي ليهنئوه ويباركوا له

إسلامه ، ومـا إن بلغوا بيته ورآهم في حـــالهم من التطبيل والتزمير ولبس العمائم الكبيرة والجبب الفضفاضة ، وفي اعناقهم المسابح الطويلة وفي ايديهم الرايات العريضة، حتى خرج اليهم من شرفة منزله وقــال لهم بصوت واضح : ايهـا السادة عودوا من حيث جئتم واعلموا ان الذي اعجبت به هو الاسلام لا المسلمون. فانكفأ المتظاهرون على اعقابهم وعادوا كاسفين .

وكما بعُد المسلمون عن الاسلام وروحه ومثُله الكريمة، بعُد العرب عن الثقافة العربية ومثلها وادبها، فاضحوا شيئين متباعدين. هذا واقع ربما لا يروق الكثيرين من اصحاب الغيرة والحماسة ، وربما لا يرضي السياسيين المحترفين، ولكنه واقع على اي حال. ومن الخيران نراه ونلمسه ليكون نقطة البداءة للعمل في المستقبل. اما تجـاهله والتقزز من مرآه وملمسه ، فلا يفيد البتة ، ويحول دون البداءة بداءةً صحيحة ، ودون السير في طرق واضحة المعالم نحو المثل العليا الجميلة .

* * *

ولننظر في الحقـائق المـاثلة في مختلف الشعوب العربية ولنر صحة ما ندعيه من سطحية في عروبتها .

فالشعوب العربيـة في الشرق العربي ـ وننحي الآن الغرب العربي مؤقتاً ـ مؤلفة من عناصر متعددة لم تنصهر في مجموع ذي

كيان واحد وميول متقاربة . فهنالك عناصر من اصل تركي واخرى من اصل شركسي ، وثالثة من اصل كردي ، ورابعة من اصل ارمني ، وخامسة من اصل آشوري ، وسادسة من اصل آرامي وسابعة بدوية . وهذه العناصر ترد الى اصول مختلفة ذوات لغات وآداب وميول مختلفة . ولا نشير الى الطوائف ذوات المذاهب المتعددة وان كانت هي ايضاً لم تنصهر انصهاراً كلياً في المجموع العربي لاسباب سياسية او دينية او اجتماعية او لهذه الاسباب جميعها. وليس بمنكر ان الاوضاع السياسية ، في قريب العهود ، بالغت في التفريق بين هذه العناصر ، والحؤول دون تكتلها وانصهارها في مجموع واحد ، وان ربع قرن كان ينبغي ان يكون كافياً لازالة اسباب التنافر بينها ، ولتوجيهها ثقافياً ولغوياً وجهة قومية بحتة. ولكن هذا الذي جرى ، وهو ادعى الى معالجة قضية الوحدة بينها ، من فرض وحدتها وانصهارها فرضاً قائماً على الوهم .

يضاف الى ذلك ان الجمهرة في الشعوب العربية معظمها امية لا تقرأ ولا تكتب . فهي اذن محرومة من اقوى الروابط التي يعتمد عليها السياسيون في اقامة بنائهم . وما بقي من هذه الجمهرة من نسبة ـ يجوز الا تتجاوز العشر ـ لا يمكن ان نعتقد انها نهلت من الثقافة العربية ما يكفي ان يجعلها في مقام القائد

لهذه الجمهرة . فقد ذهبت التيارات الثقافية مذاهب شتى في توجيهها وتوزيع ميولها وطرائق تفكيرها بحيث لم تعد صالحة لتولي التوجيه الصحيح . وبقي افراد مؤمنون نيرون بثوا الروح ونفخوا البوق واضرموا النيران ولكن في فيافي شاسعة مترامية الاطراف ، فذهب ما نفخوا وما اضرموا هباء.

اما اللغة التي هي لب الثقافة وجوهرها الفرد فلا يمكن ان نعتبرها في وضعها الحاضر مظهراً صحيحاً من مظاهر العروبة ، فهي في الواقع مظهر تاريخي ونقطة بداءة لا نهاية وملتقى طرق لا ساحة لقاء . فاللهجات العربية مظهر من مظاهر الصلات التاريخية بين الشعوب العربية . اما المظهر الواقعي فهو العربية الفصيحة ، عربية الكتاب والقلم ، وهي التي تجتمع عندها عقول الشعوب وقلوبهم ومشاعرهم وآمالهم . واين هذه في واقعها اليوم في مختلف البيئات العربية ؟ وهل هذه العناصر الشعبية التي اشرنا اليها سابقاً تجتمع في المعاهد على هذه اللغة الفصيحة مع اختلافها في بيئتها الخاصة اختلافاً في غير مقدورنا القضاء عليه سريعاً ؟ فهل المواطن الارمني او الكردي او الآشوري او التركي ينهل من مورد لغوي واحد ؟ وهل تيسرت له المدرسة التي تضمه الى مواطنيه من مختلف العناصر ، وتنطقه بلسان عربي مبين ؟

لا شك في ان هناك رابطاً ثالثاً ذا خطر هو الدين . وهو

في الصرح العربي ركن لا معدى عن اعتباره اساساً من اسس القومية العربية. فديانتا التوحيد : الاسلام والنصرانية في اسسهما الاصلية وجوهرهما المبرأ من الحواشي الدخيلة، يجب اعتبارهما من اركان القومية العربية . فالى اي حد قد تغلغلت هاتان الديانتان في نفوس المؤمنين من سكان الشرق العربي وقاربتا بين الافراد وثبتتا المذاهب وايدتا الاتجاهات والنزعات القومية ؟

واقع الحال ان الدين في الشرق العربي وسيلة من وسائل التفرقة ، ومظهر من مظاهر التفسخ والانحلال ، لا من حيث هو دين صحيح ، ولكن من حيث هو مجموع معتقدات وآراء اضافها المتأخرون عن عصبية او جهل او سوء فهم. فالدين: اسلاماً ونصرانية ، في جوهره نزوع الى الحق والخير والتعاون . وهو عكس ما نرى في الوقت الحاضر. حتى الدين الواحد اصبح متعددا متناقضاً في مختلف البيئات في الدولة الواحدة ، فانقلبت الوسيلة النبيلة التي حباها الله سكان الشرق العربي لجمع شملهم وتطهير نفوسهم وتوحيد مجتمعهم ، انقلبت الى نقيض هذه الصفات .

ومن العجب ان الدين الاسلامي في القرون الاولى للاسلام، لم يورث المجتمع الممثل لمختلف الطوائف الا الخير والتعاون. حتى المناقشات التي ثارت في بعض المدن الاسلامية لم تؤد الى خلافات ممزقة

لشمل المجتمع . وهذا بحث طويل لا مجال للافاضة فيه هنا ، وحسبي ان اشير الى ان إماماً من كبار أئمة المسلمين وفقيهاً من اجل فقهائهم في القرن الثالث الهجري ، كان يروي النصوص من الكتب المقدسة قائلاً مما قال الله في التوراة ، ومما قال الله في الانجيل . وقد رأيت في كتاب قديم ألف في منتصف القرن الثالث للهجرة هذين البيتين :

يقولون : نصرانية ام خالد
فقلت دعوها ، كل نفس ودينها
فان تك نصرانية ام خالد
فقد صورت في صورة لا تشينها

هذا التسامح مبعثه الايمان الصحيح والعقيدة الراسخة بنبل الدعوة الدينية ، وهو ما ينبغي ان يظل مستمراً في جميع العصور في بلاد الشرق العربي كله . لا ينكر ان جزءاً كبيراً من العالم الغربي لم يعن بالعقائد الدينية ولم يعتبرها ركناً من اركان المجتمع . وهو اتجاه له ما يبرره في البيئات الراقية التي سد فيها العلم مسد الدين الى حد ما. ولكن في مهبط الدين وفي البيئات الاجتماعية المتأخرة لا شيء يغني عن النزعة الدينية ، على ان يكون مبعثها العقيدة الراسخة والايمان الصادق المجرد عن الترهات والاباطيل .

لقد شعرنا في اثناء تطوافنا في البلاد العربية ان اصحاب العقائد الصحيحة كانوا اقرب شعوراً بالعروبة واصدق ايماناً بها من غيرهم من المواطنين الضعيفي الايمان والعقائد ، وهذا وحده دليل ثابت على ان الدين وسيلة من وسائل التآلف والتحابب ، وبالتالي ركن من اركان العروبة .

* * *

لقد سألت نفسي مراراً: ترى ما القواعد التي نستطيع ان نعول عليها في اختبار سمك العروبة او رقتها الشعوب العربية ؟ كيف نحكم على ان هذا الشعب او ذاك اكثر تمسكاً بعروبته وحرصاً عليها ، وتفانياً في صونها من ذاك الشعب ؟ . وبدا لي بعد التأمل ان تلك القواعد تنحصر في خمس : الاولى ، تمسك الشعب بلغته ومبلغ تذوقه ادبه، لا بالنسبة الى الافراد ، ولكن بالنسبة الى المجموع . القاعدة الثانية : اعتزازه بالتاريخ العربي وتفهمه اسراره ودقائقه، وابرازه اياه لمختلف القراء ابرازاً جميلاً. والثالثة : تعلقه بتقاليد امته وسجاياها المتوارثة المصفاة بفعل الزمن مما يشينها . والرابعة: حرصه على التراث القومي من نظُم وسياسة ودين وما الى ذلك مما تعتز به الامة على مر العصور . والخامسة : الدفاع عن شرف العروبة والذب عن الحمى . فاذا صحت هذه القواعد ــ وما اظنها جميعاً غير صحيحة ــ وجب

ان نتساءل الى اي حد تتوفر هذه القواعد في الشعوب العربية في الوقت الحاضر ؟ ولست بحاجة الى تفصيل الجواب ولكني استطيع ان اقول بشيء من الصراحة: ان الشعوب العربية تبدو لنا في ضوء هذا التحقيق شعوباً عربية اسماً ، مع اختلاف ظاهر في بعض البيئات العربية .

وقد كان من الواجب ان تضع الحكومات العربية او على الاقل أولو الرأي والبصيرة في الشعوب العربية برامج واضحة لتمكين هذه القواعد في نفوس العرب، والعمل بمختلف الوسائل في سبيل اذاعتها وتوطيدها . ولكني اقول بكثير من المرارة والاسى اني لم الاحظ في جميع البرامج التي تسير عليها وتتبناها الحكومات او الفئات النيرة شيئاً من هذا الاتجاه. ومع التسليم بان الاوضاع السياسية العامة التي فرضها الاجنبي في البلاد العربية لم تيسر نشر هذا الاتجاه، نرى ان تباشير الوعي التي ظهرت هنا وهناك كانت خالية من هذا الاتجاه ايضاً . الا يصح ان يتوقع المرء عند ظهور كبت وضغط من الحكام المستبدين ان يظهر رد فعل عند بعض الجماعات على اقل تقدير ؟ فأين رد الفعل هذا؟ واين مظاهره ؟ واين رواده وابطاله وشهداؤه ؟ لقد ظهر وعي قومي وظهرت حركات قومية في جميع البلدان العربية ، ولكنها كانت حركات سياسية محضا لا تعتمد على اصول علمية صحيحة

تمت الى القواعد التي ذكرنا بصلة . ومعنى ذلك ان الوعي كان فورات، بعضها بتأثير الضغط الخارجي سلباً او ايجاباً لا اكثر. وكان مجرى الحوادث يؤثر تأثيراً قوياً في إضعاف هذه الفورات وتوجيهها يمنة ويسرة دون استقرار، وحتى يومنا هذا لا نستطيع ان نسم الحركات القومية بميسم الثبات والرسوخ، لانها لم تتكىء على قواعد كالتي ذكرنا . وشواهد الحال في البلاد العربية تؤيد هذا الذي نقوله كل التأييد . ولسنا في حال يمكننا من التصريح بأوضح مما ذكرنا . وقد ثبت لنا ان الحركات القومية اعتمدت في ظهورها واختفائها على ما لدى اصحابها من قوة ونفوذ وعصبية، لا على ما لديها من مبادىء قومية صحيحة .

وإذن فتحليلنا السابق لمظاهر الوحدة العربية، وما استخلصناه من قواعد في اختبار القومية العربية ، كل ذلك يؤدي الى نتيجة واحدة هي ان العروبة قشرة بالغة غاية الرقة في الشعوب العربية وان العرب بحاجة الى تعريب هذه هي الحقيقة التي يجب ان لا يحول حائل دون اظهارها مهما تعرضنا لنقد او تسفيه . ومن الخير كل الخير ان تكون بداءة العمل ، في سبيل الوحدة العربية او التعاون العربي او الجامعة العربية او ما شئت من تعبير مماثل ، لانها بداءة علمية صحيحة لا يأتيها الفساد من اية ناحية من نواحيها . ومن الجريمة ان ننكر صحة هذه البداءة ،

او ان نشك في صحة هذه النتـائج، معتمدين على عواطف لا غنـاء فيهـا . وانه لزراية بالعقول ان نتوسل بوسائل اقرب الى الشعوذة منها الى البناء الصحيح في اقـامة الروابط بين الشعوب العربية وتحقيق مثلها القومية .

ما الوسائل التي تؤدي الى تعريب العرب ؟ كيف نستطيع ان نجعل الشعور بالعروبة شاملاً وعميقاً في الشعوب العربية ؟ هذا هو السؤال الذي نحاول ان نوجز الاجابة عنه .

اول وسيلة بل اهم وسيلة ينبغي ان نتوسل بها هي المعرفة الصحيحة لاحوالنا وشؤوننا كبيرها وصغيرها ، اعني ان يعرف بعضنا بعضاً معرفة حقيقية ان لم تكن اكثر من معرفة الاجنبي فلتكن مثلها . لان الجهل بشئوننا واحوالنا كان اكبر علة لتدهور علاقاتنا واصطدام مصالحنا ، وما يظهر بين حين وآخر من فساد مزرٍ في صلاتنـــا . ولنقل بصراحة ان كل جزء منا يجهل الاجزاء الاخرى جهلاً شنيعاً، وحين نرسم الخطط لوحدتنا وجمع شملنا لا نكلف انفسنا عناء درس احوالنا وشؤوننا اولاً ثم انشاء تلك الوحدة . ومن اعجب العجب ان الاجنبي عرفنـا عن طريقين اثنين ، الاول : الرحلة والتغلغل في بلادنا ، مدنهـا وقراها وبواديهـــا . والثاني : قراءة الكتب الحاوية اوصافاً وافية لاحوالنا الاقتصادية والاجتماعية والدينية وما الى ذلك .

فان شئت ان تدرس شؤون الشرق العربي فلا بد لك من ان تلم اولاً بأهم اللغات الاجنبية لتقرأ من احوالنا ما لا تجده في المصادر العربية كلها ، لان الاجنبي استطاع بالرحلة والمشاهدة ان ينفذ الى بيئتنا ويقف على دخائل نفوسنا كأنه واحد منا ، بل لكأنه عالم من اكبر علمائنا يشرف علينا من علٍ ويرى ما لا نراه نحن من شؤون انفسنا . هذه حقيقة لا يمارى فيها .

واود هنا ان اسوق مثلاً حياً منتزعاً من الاختبار . حين عقد المؤتمر الثقافي للجامعة العربية سنة ١٩٤٦ في بيت مري من اعمال لبنان كانت رغبة الجميع ان توضع كتب موحدة تحتوي الحد المشترك الادنى لمختلف الموضوعات . وكان القائمون على المؤتمر اعدوا في قواعد اللغة العربية مادة اعتبروها الحد المشترك بين طلاب البلدان العربية . وحين عرضت هذه المقترحات مكتوبة على اللجنة المختصة لدرسها – وكنت يومئذ مقرر هذه اللجنة – كنت اول من اعترض عليها . وعجب اخواني اشد العجب ، وقال لي بعضهم : كنا نتوقع ان يعارض اي عضو سواك ، علماً منا بانك من احرصنا على وضع هذا الحد المشترك. فأجبتهم اني لكذلك وهذا هو سبب امتناعي عن الموافقة على هذه المقترحات . فبدا كلامى لهم متناقضاً . وعندئذ شرحت لهم رأيي قائلاً : يجب ان يسبق وضع هذه المادة اجراء لا بد منه لتأتي صائبة لا مأخذ عليها . ذلك ان تؤلف لجنة ممثلة لمختلف

الاقطار العربية تطوف المدارس ، وتدرس احوالها دراسة مستفيضة ، وتعرف حاجة المدارس في كل قطر ، ونظام تقسيم الصفوف ، ومدى استعداد الطلاب فيها ومستوى كل منها ، ثم يأتي دور الصياغة فيوضع الحد المشترك الادنى. اما ان نقرر هذا الحد قبل هذه الخطوة فعمل لن يؤدي الى نتيجة ، وسيظل حبراً على ورق الى ما شاء الله . وضربت لهم مثلاً على ذلك ما ذكروه من صفوف او سنوات في المدارس وقلت لهم : ان مراحل التعليم في كل بلد تختلف عما هي عليه في البلد الآخر. فما يكون صفاً اول في مصر قد يكون دون الصف الاول في لبنان بسنتين مثلاً ، او فوق الصف الاول في العراق بسنة . يضاف الى ذلك ان عدد سني كل مرحلة يختلف في كل قطر . ومواهب الطلاب ايضاً تختلف اختلافاً كبيراً ، فكيف يمكن مع هذه الاختلافات ان نضع حداً مشتركاً ؟ فالحد المشترك يجب ان يسبقه درس شامل لاحوال المدارس في جميع الاقطار العربية . وذكرت لهم ان بعثة امريكية جمعت امريكيا وعربيين – عراقياً ومصرياً – طافت البلدان العربية ودرست حالة المدارس فيها مدة لاتقل عن سنة، لاختبار التعليم فيها اختباراً صحيحاً ، وان شيئا كهذا ينبغي ان تقوم به اللجنة الثقافية (٣٣) .

ومن المؤسف اني لم استطع ابراز اهمية هذا الاقتراح ، اما

لضعف بياني واما لضعف نظر غيري . ودارت مناقشات في الموضوع في حلقات صغيرة وكبيرة . وظللت متمسكاً برأيي ممتنعاً عن النظر في المنهاج . وقلت لهم اني بين امرين : اما ان ارفض المنهاج رفضاً تاماً لانه لم يستند الى كفايات الطلاب وسنيهم واحوالهم ، واما ان اوافق عليه بلا نظر ولا نقد. اما ان ندخل في تفصيل المنهاج فعمل سابق لاوانه فضلاً عن انه لن يؤدي الى نتيجة . وفي جلسة ضمت زميلين كريمين ، عراقياً ومصريا ، وجه الي عتاب ، فلم ار بدأ بعد ذلك من ان اقبل المنهاج على ان لا انقده حرصاً على انجاز اللجنة واجبها كما يريدون . وما الذي حدث بعد ذلك ؟ الذي حدث فعلاً ان فكرة الحد المشترك لذلك الموضوع لم تنتج اثراً عملياً في اي بلد من البلدان العربية ، ولم ار حتى هذا اليوم الكتاب المشترك بارزاً الى حيز الوجود . واعتقد واثقاً انه لن يبرز ما لم يُسبق بالخطوة العملية التي اشرت اليها . هذا مثل واحد له اشباهه ونظائره في سائر شؤوننا وما ينتج عنها من عدم النجاح. ولكن يجب ان اعترف صراحة ان المؤتمر الثقافي نجح نجاحاً عظيماً في ناحية واحدة هي التعارف والتفاهم بين الاعضاء المشتركين والزائرين الذين وفدوا من جميع البلدان العربية . هذا التعارف الذي لم يتيسر في غير هذا الاجتماع . وهو في ذاته دليل قاطع على صحة المبدأ الذي اقرره هنا . فكل خطوة في سبيل ان

نعرف انفسنا وان يعرف بعضنا بعضا هو اجل مـا يمكن ان نقوم به في سبيل وحدتنـــا . ولا اريد ان اقحم نفسي فيما لا يعنيني كما اني لا اريد ان اتوغل في السياسة ، ولكن ما لا بد ان اقوله واؤكده ، هو ان الخذلان الذي مني به العرب في قضية فلسطين ، كان من اسبـــابه الرئيسة جهل بعضنا بعضاً ، جهـل حال كل بلد وممكناته وشعور شعوبه ، فكانت الكارثة التي أقضّت مضاجع العرب وازرت بهم وخدشت كرامتهم لا في البلدان العربية وحدهـا بل في جميع العـــالم . وقد وجه الي الكثيرون اسئلة في اثناء تطوافي في تركيا في صيف مضى عن عجز سبعة جيوش عربية عن هزيمة جيش قوته لا تزيد عن قوة احد هذه الجيوش السبعة . وهذا موضع العجب في كل مكان. وسره في نظري اننا اقدمنا قبل ان يعرف بعضنا بعضاً، وقبل ان يلم بعضنا بشؤون بعض ، وان يقف على استعداده وممكناته جملة وتفصيلًا . وقس على ذلك سائر مـا نتبناه من مشاريع ونرسمه من خطط كلها نظرية لم تؤد الى نتيجة ولن يكتب لها النجـاح قبل الخطوة العمليـة الاولى وهي درس الاستعداد والممكنات والاحوال دراسة مستفيضة ، ورسم الخطط في ضوئها . واذن فليس من سبيل الى تعريب العرب قبل ان نعرف هـذه القضية معرفة درس وتمحيص واختبار بواسطة لجنة تطوف البلدان سنة او سنتين او ثلاثا تسبر فيهـا عمق العروبة او سطحيتهـا في كل

قطر ثم تصف العلاج لكل شعب او للشعوب جميعها. وانا اعترف اني افدت من اسفاري في السنين الاخيرة في سوريا ولبنان، والعراق والعربية السعودية كما افدت من اقامتي سبع سنوات في مصر، ومن تجوالي في شرقي الاردن وفلسطين، وان فكرة التعريب هذه ما كانت لتخطر في بالي وما كنت لاؤمن بها لولا تلك الاسفار المتواصلة والدراسة المباشرة لحالة الشعوب العربية في مواطنها.

وهناك وسيلة ثانية لتعريب العرب هي عقد المؤتمرات او الاسواق الادبية والعلمية في المناسبات العارضة لبث روح العروبة بالكتابة والخطابة على ما وقع حين اجتمع بعض مفكري العرب وادبائهم في دمشق عام ١٩٤٤ احتفالاً بذكرى مرور الف عام على مولد ابي العلاء. لقد كانت تلك المناسبة مظاهرة ادبية ذات تأثير قوي في تعريب العرب، لانها اشعرت الطبقات المثقفة ان هناك وحدة حقيقية بينهم تجمع اجل مقوماتهم، هي عقولهم التي بها يفكرون ويتميزون عن سائر المخلوقات. حقا ان المؤتمر لم يتعد الطبقة المتعلمة ولم تحس به جمهرة الشعب في سوريا احساسا منتجا، سوى ما رأته تلك الجمهرة من اشخاص يفدون عليها واحتفالات في المدن والمجتمعات، يرون آثارها رؤية البصر لا غير. ولكن كما قلت سابقا ان المتعلمين انفسهم تختلف عروبتهم باختلاف تذوقهم للادب العربي واحساسهم به، فكانت تلك المظاهرة الادبية منعشة ومقوية لفريق، وموجهة ومرشدة لفريق

آخر ، كل حسب استعداده وادراكه الادبي ، ذلك عدا ما نتج من آثار مدونة اولاً في وصف الاحتفالات وثانيا في نشر كتب ومقالات حول ابي العلاء نفسه . وما يزال هذا الاثر دائم التأثير في البيئات العربية المثقفة ، وان كان مركزاً الان فيما تنشره لجنة مصرية في القاهرة من آثار ابي العلاء .

هذه الحادثة تركت في رأيي تأثيراً كبيراً في تعريب العرب، في احساسهم بعربيتهم ، في شعورهم بان هناك جامعا يؤلف بين اذواقهم وافكارهم ومشاعرهم . وهذا هو التعريب عينه الذي اقصده .

وقد رأيت مصادفة فقرة كتبها الاستاذ شفيق جبري في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق تعقيبا على كتاب المهرجان الالفي لابي العلاء الذي نشره المجمع فرأيت في ذلك التعقيب احساسا عميقا باثر هذا المؤتمر في نفس اديب من ادباء العرب المعروفين وهو لا بد تارك التأثير نفسه في عدد كبير من الادباء الذين حضروا المهرجان الالفي او قرأوا وصف الاحتفالات او تتبعوا فيما بعدُ الآثار الناجمة عنه . قال الاستاذ جبري : « فقد استطاع مجمعنا العلمي العربي بدمشق ان يصل في هذا العام الماضي بالحاضر اشد صلة، فدل عمله هذا على ان وطننا الروحاني لا يعترضه شيء من العقبات المادية، فلا الصحارى ولا الجبال ولا

البحار وما شاكلها تعترض تقاليدنا وافكارنا وعواطفنا الواحدة او المتقاربة .

« لقد حمل مجمعنا العلمي رجالات العرب في هذا العصر من مصر وفلسطين وشرقي الاردن ولبنان والشام والعراق على تذكر مولد ابي العلاء ، بعد ان مر على هذا المولد الف سنة ، فهبوا لهذا التذكر كأنهم جسم واحد وروح واحدة لم تباعد بينهم صحراء مديدة ، او جبل ذاهب في السماء ، او بحر لا يدرك اوله ولا آخره ، على الرغم من الحوادث السياسية التي مرت على هذه البلاد العربية من مولد المعري الى يومنا هذا ». فانظر ما تنطوي عليه هذه الفقرة من احساس بالعروبة، وكيف ان العرب اجتازوا القرون الطويلة والمسافات الشاسعة في يوم او ايام معدودات ليلتقوا في صعيد واحد، لقاء عقول وارواح، لا لقاء اجسام، وكيف احسوا بالعروبة تجري في عروقهم ادباً خالصاً وفكراً خالصاً ، على ما هم عليه من بعد الشقة وعلى ما بينهم وبين المعري من بعيد الآماد ، وعلى ما جرته الحوادث السياسية عليهم من تفرقة . (٣٤)

هذا المهرجان قد غور الاحساس بالعروبة ، او بتعبيرنا ، فعل في تعريب العرب ما عجزت عن فعله مئات التصريحات السياسية ، ومئات الاجتماعات التي قام بها اناس قد يكونون

مخلصين ، ولكنهم - بلا شك - ابعد الناس عن سلوك السبيل السوي في تعريب العرب وجمع شملهم . الا يصح ان نقول انه يجب ان يشتغل في قضية التعريب هذه، الادباء والمفكرون الذين ارتوت نفوسهم من ينابيع الادب العربي والثقـافة العربية ، فأضحوا عرباً صحاح العقول ، وقادة راسخي الايمان، لا اولئك النفر من السياسيين المحترفين الذين هم احوج الناس الى التعريب؟

ولكن الحق ان هذه الوسيلة الثانية مقتصرة على فئة محدودة يصح ان تتولى القيادة في عملية التعريب ، وتسلك هي نفسهـا سبلًا اخرى في توسيع آفـاق التعريب حتى يشمل الجمـاهير العربية . وما لم يمتد التعريب الى الاطراف جميعها فيشمل المدن والريف والصحارى حتى اولئك الذين نحسبهم عرباً بحكم سكناهم الوبر وعاداتهم البدوية ، وهم ابعد الناس عن العروبة ، ما لم يمتد ويتوغل الى الأقاصي يكون تعريباً سطحياً قليل النفع . وهذا يوصلنا الى الوسيلة الثالثة النافذة الى جمهرة الشعوب العربية .

اننا نعترف ان الاحداث - الخارجية والداخلية - على مر الازمان قد عملت على محو الصلات بين الشعوب العربية الواحدة بعد الاخرى ، حتى بلغنا مرحلة لم نجد فيها ما يربطنا سوى هذا الخيط الذهبي المديد. ومع انه خيط واحد الا انه اقوى الخيوط واثبتها على الزمن هو هذه اللغة العربية ببيانها الرائع وادبها الفذ،

ومرونتها وحيويتها . فهل ادركنا نحن شأن هذا الخيط ؟ وهل في برامجنا الكبرى في الاندية السياسية وبرامجنـــا الصغرى في المعاهد بند يشير الى توسيع آفاق اللغة حتى تشمل جميع طبقات الشعب ؟ والى تيسيرهـا وتشذيبها حتى تماشي اقوامهـا في جميع الاقطار؟ والى العناية بالكتاب العربي حتى يصبح بمقام الرغيف عند كل فرد ؟ . ها نحن اولاء قطعنا نحو نصف قرن ـــ او ربع قرن على الاقل ـــ منذ فتحنا عيوننـا على كياننا العربي المشترك ، فما الخطوات التي سلكناها في سبيل درس لغياتنـــا المحلية ولغتنا الفصيحة الموحدة وفي تجديد النحو وفي نقل الآداب العالمية الى لغتنـا ، وفي افساح المجال للتفكير الاصيل المعبر عن كياننا العربي في جميع مظاهره ؟. لقدمضت علينا سنوات، تقل عن عشر، نجادل في القواعد كيف نعالجها ونصفيها ونهذبها ونبرزها ابرازاً علمياً حديثاً ، وكان صوت اصحاب الاختصاص والثقافة العميقة يختلط باصوات طوائف شتى مـن متزمتين وضيقي نظر ورسميين سطحيين واصحاب اصوات غليظة كل رأسمالهم الصياح. وانتهينا بعد طول الجـدال الى حيث ابتدأنا ، وصوت صاحب الاختصاص والتفكير السليم خافت لا يصل الى الآذان . وربما انتهينا اخيراً الى اتفاق على استدعاء نفر من الاجانب يمخضون كتبنا القديمة ويستخرجون زبدتهـــا ويعرضونها علينا في اناء جميل !.

ونلتفت الى التراث العربي ـ الى تلك المئات من المخطوطات التي تصفى فيها الفكر العربي ـ فنراه رهنا برحمة الارضة ورحمة فريق من الجهلة توارثوه والقوه في صناديق مقفلة . ونعترف ان الادارة الثقافية للجـامعة العربية ادركت قيمة هذا التراث وصورت عدداً من المخطوطات المبعثرة في المكاتب ولكن عملية النشر سائرة في غاية البطء . والنشر ذاته فن من ادق الفنون يحتاج الى خبرة وجهد ما اظنهما توافرا الى يومنا هذا . والنشر التجاري قليل النفع جم النواقص . وما لم ترصد الحكومات اموالاً طائلة وتستفد من خبرة اصحاب الاختصاص فسيظل النشر دون ما نرتجيه ودون ان يحقق الهدف الذي نقصده من التعريب ، اذ ليس كل مخطوط خليقاً بالنشر ، فنحن نريـد بعث العناصر الحية في التراث العربي ، والعناصر التي يغنى بها الفكر العربي ويعتز ، والتي تعين على تفهم تاريخنا وادبنا وحضارتنا ، وتدمجنا في كياننا العربي الذي تنتظم فيه الشعوب العربية . وتبدو سطحية عروبتنا جلية لمن هيأت له الظروف الاطلاع على طرف من التراث العربي الدفين ، فنبدو حقيقة امة هزيلة كالشبح في عالم الاحياء ، نبدو كذلك في ضوء تاريخنا القديم يوم كنا امة عربية حقاً ذات مشاركة اصيلة في بناء الحضارة العالمية . اننا لم نمن بتشتت الشمل الا بعد ان انقطعنا عن تراثنا الفكري القديم انقطاعاً يكاد يكون تاماً ، وبعد ان انقطعنا عن مشاركة الامم

في العلوم والآداب. واعجب بأمة تطبع كتاباً ألّف قبل ألف عام فترى فيه عبقرية لا تكاد تدركها وتفقه كنهها !. واين منا الفيلسوف الذي يحيط بفلسفة الفارابي وابن سينا وابن رشد وابن طفيل واضرابهم ؟ واين منا المؤرخ الذي يلم بفلسفة ابن خلدون التاريخية ونظرياته في علم الاجتماع ؟ واين منا الفقيه الذي يستطيع ان يتفهم فقه الائمة كأبي حنيفة وابن حنبل والشافعي ، واين واين واين.. مما لا يقع تحت حصر ؟ ونحن لا نغالي فنقول : اين من يضيف اليوم الى تلك العلوم والآداب؟ واية عروبة هذه التي ننتحلها وقد قطعت الصلة او كادت بمقومات العروبة وعناصرها الفذة ؟ واي معنى لهذه العروبة التي نتبجح بها وكل ما بقي لنا من آثارها هذه اللغيات الهزيلة الغثة التي تلوكها السنة السواد الاعظم للشعوب العربية معبرة عن حيوات في غاية السذاجة . ونحن — واأسفاه — اسأنا فهم اللغة ، ظنناها الفاظاً رنانة ؛ وما هي الا وسيلة للتعبير ومظهر من مظاهر الغناء الروحي والفكري والاجتماعي . اللغة فكر واحساس وحياة لا الفاظ جوفاء . واللغيات التي نلوكها اليوم خالية من هذا اللباب الا في النادر. وما فائدة هذا التشابه في لغياتنا ونحن مختلفون فيما تنطوي عليه من جوهر؟ هذه صراحة موجعة ولكن يشفع لها ان صاحبها يريد ان يزيل الغشاء عن العيون وان يجعل منها حافزاً الى الانطلاق نحو تغوير العروبة في نفوس اصحابها، والله بعد ذلك هو الشفيع.

وكان بوسعنا ان نستعين بوسيلة رابعة هي الصحافة والاذاعة اللتان جدّتا في هذا العصر وصار لهما شأن اي شأن . ولست ابغي مخاصمة هذه الاسرة الشريفة التي تربطني بها صلات وثيقة ، ولكني افهم الصحافة انها قيادة لا تجارة . ومتى كانت كذلك استطاعت ان تتغلغل حيث لا يبلغ كتاب ، وان تعمل في تعريب العرب ما تقصر عنه اية وسيلة اخرى ايا كان شأنها . وهكذا حال الاذاعة . فمن يدلني على منهاج واضح تتبنته هذه او تلك ؟ ومن يدلني على مال وفير وقفته حكومة لتشجيع هذه او تلك للسير في صراحة وجرأة نحو هذا الهدف ؟

واخيراً نحتاج في سبيل تغوير عروبتنا الى ان تكون الصلة بيننا وبين اوطاننا ، بيننا وبين التربة التي انبتتنا ، اقوى واشد مما هي عليه الآن. وقد افضنا في شرح الناحية الروحية والمعنوية من العروبة ، اما الناحية المادية فلا تحتاج الى مثل تلك الافاضة لانها تحت بصر كل امرىء فيه قليل من الوعي . نحن نحب اوطاننا ونفديها بمهجنا ، وليس ثمة امرؤ لا يحب وطنه . هذا قانون انساني عام يتساوى فيه البشر . ولكن حبنا لوطننا يفتر ان فقدنا حنوه علينا . وهناك وسائل كثيرة تستطيع بها الحكومة والجماعات المثقفة ان تجعل المواطن يتفاعل مع وطنه ، يفنى فيه ويندمج في كيانه كما يفنى المحب الحق ويندمج في

محبوبه. ومن هذه الوسائل ان ندرس وطننا وان نرى التاريخ حياً في كل بقعة منه ، وان نستمتع بجماله وخيراته ، وان يشملنا عدله ووفاؤه وحنانه ، يشملنا جميعاً كباراً وصغاراً رجالاً ونساء مسلمين ونصارى فهل هو يفعل ذلك ؟ وهل يجد العربي في الوطن العربي الكبير من الفرات الى النيل ، ومن العاصي الى الاردن ، ما يشعره ان العربية اصيلة في النفوس، غائرة في الاعماق ؟ لقد اتيح لي ان اعيش في الغرب مدة كنت ارى فيها الناس يشخصون الجمادات والنباتات والحيوانات كما نلمح ذلك في الادب العربي القديم ولا نفقه سره ، لان عروبتنا رقّت فرقت صلتنا بامنا الطبيعة وبوطننا الارض. كنت اسمعهم يتحدثون عن الهضاب على شواطىء انكلترا وكأنهم يتحدثون عن بقاع في الفردوس . ويتحدثون عن الاشجار ، عن شجرة معينة تقع في ساحة عامة او في مكان معين ، وكأنهم يتحدثون عن صديق اليف . ويتحدثون عن الكلب الفلاني او الحصان الفلاني او البقرة الفلانية بضمير العاقل كأنهم يتحدثون عن اقرباء، فهم جزء من الارض ، بل هم والارض شقان ، هم الشق الفاني، والارض بما عليها الشق الباقي . وهم يزينون التربة كما نزين نحن العروسة ، ويعنون بتشذيبها وتسميدها وارووائها كما نعنى نحن باطفالنا . الى هذا الحد بلغت القربى بينهم وبين تربتهم التي هي وطنهم . ونحن نرى في بلادنا جهلا يكاد يكون منقطع النظير

ولكنه في الاغلب جمال مهمل كجمال البدوية بالضبط او كما قال ابو تمام : كأنه في غربة واسار. لم نفكر في صقله ؛ نمر به وعيوننا مسمرة في همومنا ومشاكلنا. لم يسترع احد نظرنا اليه، ولم يُغرنا احد به ، ولو فعل لخفت وطأة الالآم عنا ، ولأ قبلنا عليه نوليه تفكيرنا وعنايتنا ، وبالتالي لنشأت بيننـــا وبينه الفة ومودة . وهكذا تتولد فينا وطنية عقلية وروحية ، لا كهذه الوطنية الجافة . اننا وطنيون جغرافياً لا عقلياً وروحيـــاً . وشتان بين الوطنيتين ! .

وبعد، لقد بسطنا رأينا بصراحة ووضوح، وابنّا نظريتنا في « تعريب العرب » ودللنا على الوسائل بمـــا ينبغي من الايجاز والاسهاب حسب مقتضى الحال ، غير متعرضين للناحية السياسية الا بالقدر الذي يوجبه الاخلاص للبحث . ولسنا بحاجة الى ان نبين انا قصدنا خدمة امتنـا حسب تفكيرنا واجتهادنا . ونسأل الله ان يخطىء رأينا فتكون امتنا بالغة ابعد الغايات في عروبتها، ونكون نحن بالغين ابعد الغايات في سذاجة تفكيرنا .

* * *

لقد ذكرنا في الفصل الاول ان اتحاد العرب او تحالفهم على نحو من الاتحاد او التحـالف ــ كما يقرر علمـاء السياسة ــ امر ضروري . وبينا في هذا الفصل الاخير أوليّات هذا الاتحـــاد

والوسائل المؤدية اليه . واذا كنا اسرفنا أحياناً في النقد فذلك ان بعض السياسيين غالى في الاقوال دون الافعال ، فحدث رد فعل سيّء .

ولا يسع المتشائين الا ان يعترفوا بان عوامل التقريب والتوحيد اقوى من عوامل التباعد والتفريق[٣٥] . على ان الذي يعنينا السير قُدُما في ثبات وروية . وخطوة واحدة في هذا السبيل خير من خطوات ضعيفات .

ومن المؤسف حقاً ان رجال الفكر لم يشتركوا اشتراكاً كافياً في وضع الاسس العلمية لمستقبل العرب . ويبدو الآن ـ ونحن نكتب هذه السطور الاخيرة ـ ان بعض البلدان العربية أخذ يتحرر من سطوة السياسة « اللفظية » ، ويتجه نحو الافادة من رجال الفكر في مختلف الميادين. وعسى ان تكون التجارب المريرة قد علمت من لم يعلم ، وهدت الى العمل الصالح المثمر .

مراجع وشروح

الفصل الاول

١ ـ انظر كتاب the Arabs in History تأليف Bernard Lewis

لندن ١٩٥٠ ص ٩ .

٢ ـ مؤلف كتاب المصدر السابق

٣ ـ انظر مقال «Nationalism in the Middle East» Hans Kohn في مجلة الشرق الاوسط في العـدد الذي اصدره معهد الشرق الاوسط في واشنطن (شهر مـارس ١٩٥٢) ص ٦٦، ومقال william D. Schorger في المصدر السابق ص٣٨.

٤ ـ انظر كتـاب العروبة بين دعاتها ومعارضيها للأستاذ ساطع الحصري، بيروت ١٩٥٢ .

٥ ـ سورة التوبة آية ٨١

٦ ـ قطعة نشرها الشاعر امين نخله بعنوان «ضيف ثقيل» في جريدة بيروت المساء العدد ٢٤ السنة الرابعة بتاريخ ١٩٥٠/١/٤ .

٧ – انظر دائرة معارف العلوم الاجتماعية مادة Fabianism مجلد ٦ ص٤٦ ؛ ودائرة المعارف البريطانية مادة FabianSociety

٨ – برتراند رسل في كتابه Unpupular Essays طبع نيويورك ١٩٥٠ ص ٩٥ .

٩ – نقلاً عن كتاب (اقباط ومسلمون) للدكتور جاك تاجر ص ٣١٦ القاهرة ١٩٥١ .

١٠ – جريدة الحيـــاة البيروتية العدد ٢٣١٢ بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٣ .

الفصل الثاني

١١ – الدكتور نقولا زيادة في (القومية والعروبة) ص ١٠٤ . وانظر كذلك الفصل القيم (القومية العربية والدين) في كتاب الوعي القومي للدكتور قسطنطين زريق، بيروت ١٩٣٩ (من ص ١١١ – ١١٨) .

١٢ – الدكتور نبيه فارس (العرب الاحياء) ص ٥٨و٧٨ . انظر في تعريف العرب كتاب (هذا العالم العربي) لنبيه فارس ومحمد توفيق حسين ، بيروت ١٩٥٣ ص ٩ ؛ وكتاب العرب لِ ه .ا.ر. جب، اوكسفورد ١٩٤٤ ص ٣ ، وانظر في معنى اللفظة من الناحية التاريخية مقدمة كتاب (العرب قبل الاسلام) للدكتور جواد علي، بغداد ١٩٥٠. ونشرت هذه المقدمة في مجلة

(الرسالة) المصرية السنة الثالثة عشرة ، العـدد ٦٤٩ بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٩٤٥ ص ١٣٣٣ .

واذكر حديثين لطرافتهما: عن ابن كثير عن معاذ بن جبل عن النبي : ألا ان العربية اللسان ، ألا ان العربية اللسان .

وروى الحافظ بن عساكر بسنده عن مالك قول النبي :.. «ليست العربية بأحدكم من اب ولا ام، وانما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .

١٣ – امين الريحاني (ملوك العرب) المقدمة ص ٧ – ٨

الفصل الثالث

١٤ – عدد ممتاز من جريدة النهار مطلع سنة ١٩٥٠م ص٢٨

١٥ من منشورات الرابطة الفكرية ، بيروت ١٩٥١

١٦ – انظر ص (و) في المصدر السابق .

١٧ – (تاريخ اليمن) لنجم الدين عمارة بن ابي الحسن علي الحكمي اليمني، طبع لندن ١٣٠٩؛ وانظر مجلة الرسالة المصرية السنة السادسة المجلد الاول ص ١٠٧

١٨ – وردت هذه الروايات في كتاب (عيون الاخبار) لابن قتيبة حسب ترتيبها في ج ٢ ص ١٥٧ ، ج ٢ ص ١٥٥ ، ج ٢ ص ١٥٨ ، ج ٢ ص ١٥٩ ، ج ٢ ص ١٥٨ .

١٩ – طبع القاهرة سنة ١٩٣٣ ص ٩٩

٢٠ – وردت هذه الحجج الثلاث في كتاب (حياة اللغة وموتها) للخوري مارون غصن، المطبعة الكاثوليكية في بيروت ١٩٢٥ ص ٥ و ٣٩ و ١١ على التوالي .

٢١ – جمعنا هذه الحجج من جملة مصادر . انظر مثلاً مقالاً للمستر بيشوب في مجلة The Moslem World مجلد ٤٢ عدد ٥ بتاريخ تشرين الاول ١٩٤٣ ص ٣٢٩ – ٣٣ ، ورد الدكتور نبيه فارس عليه في المجلة نفسها مجلد ٤٣ عدد ٣ بتاريخ تموز ١٩٤٣ ص ٢١٧ – ٢٢٠

٢٢ – وردت معظم هذه الردود في مقال الدكتور نبيه فارس المشار اليه سابقاً. وانظر كذلك كتاب (بين المد والجزر) لمي زيادة ؛ وكتاب (معنى رشيد نخلة) لامين نخلة ص ٨٢ ؛ وكتاب (العرب الاحياء) للدكتور نبيه فارس ص ١٠٤ ؛ وكتاب (البدائع والطرائف) لجبران خليل جبران ص ١٢١

٢٣ – مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ١٩ ص ٤٠٦

٢٤ – المصدر السابق مجلد ١٥ ص ١٤٣

٢٥ – (بين المد الجزر) ص ٨٧

الفصل الرابع

٢٦ – انظر كتاب (عودة السفينة) لمؤلف هذا الكتاب طبع القدس ١٩٤٥ ص ٥١

٢٧ - يصعب حصر ما كتب في هذا الموضوع. ولعل من اقدم مـــا كتب مبحث بعنوان (الخط الجديد) لجميل صدقي الزهاوي نشر في مجلة المقتطف ، الجزء العاشر من السنة العشرين بتاريخ اول اكتبر ١٨٩٦ من ص ٧٣٨ - ٧٥٢ . ووازن الزهاوي بين الحروف العربية والحروف اللاتينية وعرض حروفاً جديدة تجد صورها في هذا المبحث . ولعيسى اسكندر المعلوف بحث تاريخي ادبي عنوانه (الكتابة) نشر في بعبدا (لبنـان) سنة ١٨٩٥ . وكتب عبدالله هدى الايوبي كتيباً عنوانه (كلمة في اصلاح حرف العرب) حلب سنة ١٩٣٨ . واشتدت العناية باصلاح الحروف العربية سنة ١٩٣٨ حين تولى وزارة المعـارف المصرية الدكتور بهي الدين بركات فألقى محاضرة عن الهجـــاء العربي وقال « ان رسم الكلمات يجب ان يتطور ليتفق مع الروح التي تسود العالم اليوم من ضرورة التبسيط والتسهيل » ، ونشرت مجلة التربية الحديثة مقـالاً له في العدد الثالث من السنة الحادية عشرة بتاريخ فبراير ١٩٣٨ ص٢١٤ - ٢١٨. واستفتت هذه المجلة عدداً من اصحـــاب الاختصاص ونشرت آراءهم في (السنة الحادية عشرة) ، منهم احمد عطية الله ص ٩٥ ، ٣١٨ ، احمد جمعه ص ٢٠٤ ، و ٢٩٩، زكي مبـارك ص ٢٥٠ ، ساطع الحصري ص ٢٥٥ ، عبد العزيز حامد القوصي ص ٢٥٩ ، حامد عبد القادر ص ٢٦٧، السيد شحاته ص ٢٨٢، ابنة الشاطيء ص ٣٢٩ ، محمد فريد ابو حديد ص ٣٣٥ ، على الجارم ص ٣٣٩ ، احمد حسن الزيات ص٣٤٦ . واثار هذا الموضوع ثانية عبدالعزيز

فهمي (باشا) في مجمع فؤاد الاول للغة العربية في القاهرة سنه ١٩٤٤ ودعا بجرأة وحماسة الى استبدال الحروف اللاتينية بالعربية ، واصدر كتاباً في هذا الموضوع عنوانه (الحروف اللاتينية للكتابة العربية) ، القاهرة ١٩٤٤ . وتصدى للرد عليه عدد كبير من الباحثين ، ونشرت معظم المجلات الادبية الصادرة في تلك السنة مقالات وافية . منها مجلة الرسالة (المصرية) في سنتها الثانية عشرة سنة ١٩٤٤؛ ومن الكتاب محمود محمد شاكر (ص ٣٠٨) ، عباس محمود العقاد (ص ٧٦١) عبد الوهاب عزام (ص ٨٨٤ و ٩٦٤) ، علي عبد الواحد وافي (ص ٩٩٢) ، احمد فؤاد الاهواني (ص ١٠١٢) ، داود الجلبي الموصلي (ص ١٠٦٦) . ونشر مجمع فؤاد الاول كتاباً عنوانه (تيسير الكتابة العربية) القاهرة ١٩٤٦ . وعسى ان تكون في هذه المراجع فائدة لمتتبعي هذا الموضوع .

٢٨ ــ محمود محمد شاكر : انظر مجلة الرسالة (المصرية) السنة الثانية عشرة العدد ٥٦٢ بتاريخ ١٠ ابريل ١٩٤٤ ص ٣٠٨ .

٢٩ ــ عبد الوهاب عزام : المصدر السابق العدد ٥٩١ بتاريخ ٣٠ اكتوبر ١٩٤٤ ص ٩٦٥ .

٣٠ــ عباس محمود العقاد: المصدر السابق العدد ٥٨٥ بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٤٤ ص ٧٦٢

٣١ــ من اقدم واجود ما كتب في هذا الموضوع، وموضوع

العامية والفصحى ، سلسلة مباحث بقلم الشيخ ابراهيم اليازجي في مجلة الضياء عنوانها (اللغة العامية واللغة الفصحى). انظر مجلة الضياء السنة الرابعة جزء ٩ بتاريخ ١٥ يناير ١٩٠٢ ص ٢٥٧ ، وج ١١ بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٠٢ ص ٣٩١ ، وج ١٢ بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٠٢ ص ٣٥٣، وج ١٣ بتاريخ ١٥ مارس ١٩٠٢ ص ٣٨٥ ، وج ١٤ بتاريخ ٣١ مارس ١٩٠٢ ص ٤١٧ . وختم الشيخ ابراهيم - رحمه الله - مباحثه هذه بالفقرة التالية : « جملة الامر ان اللغة اليوم واقفة على مفصل طريقين لا محيد لها عن سلوك واحد منهما ، فاما ان تحيا وتستعيد ماضي شبابها حتى تكون كاحدى لغات اهل العصر واما ان يسجل عليها بموت لا حياة بعده ولا مبعث منه . وكلا الامرين منوط بالامة معقود بهممها وسخائها ... فلا بقاء لامة بدون لغتها ولله البقاء وهو سبحانه مقلب الليل والنهار وفي يده ازمة الامور » .

وانظر مقال (حول اصلاح رسم الكلمات العربية) لساطع الحصري في مجلة التربية الحديثة التي تصدرها الجامعة الاميركية في القاهرة ، السنة الحادية عشرة ، العدد الرابع بتاريخ ابريل ١٩٣٨ ص ٢٥٦ ، وخلاصته ايثار «الوسائل الاصلاحية التي ترمي الى معالجة الوضع داخل نطاق الحروف العربية نفسها » .

وقول الشيخ ابراهيم لا بقاء لامة بدون لغتها قاله ايضاً ساطع الحصري . انظر مجلة الرسالة السنة الخامسة المجلد الثاني العدد ٢٣٣ بتاريخ ديسمبر سنة ١٩٣٧ ص ٢٠٥٠

الفصل الخامس

٣٢ – ننصح بالرجوع الى كتاب (العروض السهل) حيث وضعت للتفاعيل رموز صوتية ورسوم توضح المقصود هنا تمام التوضيح .

الفصل السادس

٣٣ – نشر الدكتوران رودرك ماثيوز ومتى عقراوي كتاباً ضمناه خلاصة اختبار البعثة باسم «التربية في الشرق الاوسط العربي » ترجمه الى العربية الدكتور امير بقطر ، القاهرة ١٩٤٩ . ونشر قبل ذلك النص بالانكليزية باسم
Education in Arab Countries of the Near East. 1946

ولا بد من الاشادة بالحوليات النفيسة التي اصدرها الاستاذ ساطع الحصري برعاية جامعة الدول العربية . وصدرت الاولى سنة ١٩٤٩ باسم «حولية الثقافة العربية » .

٣٤ – مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٢٢ ص ٦١٠

٣٥ – انظر فصلي (عوامل التقريب والتوحيد) و (عوامل التباعد والتفريق) في كتاب «هذا العالم العربي» للدكتور نبيه امين فارس والاستاذ محمد توفيق حسين ، بيروت ١٩٥٣ ، ومقال الدكتور نبيه امين فارس. (العرب في النصف الثاني من القرن العشرين) في مجلة الابحاث التي تصدرها الجامعة الاميركية في بيروت ، السنة الرابعة العدد الاول ١٩٥١ .